شهـــقة
الحـــوت

الكتاب: **شهقة الحوت** | Title: **whale gasp**

الكاتب: **ناهض الهندي** | Author: **Nahidh Al-Hindi**

الطبعة الأولى , بغداد – العراق 2022 | First edition, Baghdad – Iraq 2022

تصميم الغلاف والأخراج الفني: مهدي داود | Cover Design & Formatting: Mahdi Dawood

DAR AKAD'S PUBLISHING AND DISTRIBUTION

شارع المتنبي - بغداد - العراق

009647733850567

Email: ali.hameed.ahz98@yahoo.com

شهقة الحوت

ناهض الهندي

AKKAD
دار أكاد للنشر والتوزيع

إذا كان الكتاب الذي نقرأه لا يوقظنا بخبطة

على جمجمتنا، فلماذا نقرأ إذن؟

فرانز كافكا

إهداء

هذا العمل برمته هدية

لصديقي الحاج "كمال عبد الله العامري"

الذي يحيرني فيه قدرته على الجمع بين التعملق والتواضع في آن واحد،

ولولاه ما كان لأحد

أن يقدر على قراءة هذه السطور وما بعدها

وإلى الحاج المهدي وولديه

فهم من عزف بناي تضحياتهم ألحان كلماتي،

وهم ألمي الذي أحمله في صدري

وصوت صرختي

وما أنا وكل ما اعمل إلا صدى لتضحياتهم، هم وأمثالهم

1

لا يمكن أن يتصور المرء إنساناً أكثر ميلاً من "حامد المهدي" لمسايرة الناس، ولا أقدر منه على مجاراة الآخرين، فعلى الرغم من تدينه العميق والتزامه الشديد بالمثل والقيم، وتمسكه المحافظ بالأعراف الاجتماعية إلى حد غريب لا يصدق، فإنه كان ذا علاقات اجتماعية واسعة. يعرف أناساً شتى من مختلف الأديان والمذاهب، ويتواصل مع سائر الأعراق ومختلف الطبقات التي تسكن معه في الحي شبه الريفي، الذي صار حضرياً بتعاقب الأيام وتوالي السنين. ازداد توسع الحي رويداً ثم سريعاً، لتبدأ منازله بالتراص والتكدس بعد أن كان بيوتاً صغيرة تتناثر على أرض خصبة، لا ينتهي لون مزارعها الخضر إلا حين يلامس زرقة السماء في أفق ناء، تُخْطَف فيه دائرة الشمس الهائلة، وتدلف في موضع سري؛ ليهبط الليل بصمت من ذروة الأفق ويدثر المزارع الممتدة بخلائها اللامتناهي لون المغيب. سكون طافح لا يضره نقيق الضفادع الدؤوب، وظلمة حالكة لا يخرقها هفيف أجنحة الحشرات النابضة بحركة حثيثة سريعة مجدة في البحث عن شيء مجهول، كأنها تتسابق الوصول الى كنز موارى في مكان خفي خشية أن يصله أحد قبلها.

وعندما يقال عن "حامد المهدي" أنه كان ملتزماً بشدة، فليس في ذلك شيء من التهويل ولا بقصد المبالغة والتعظيم أبداً، بل على الضد من ذلك، يمكن القول من غير إسراف في الوصف ولا إطناب في

الكلام حتى شخص كليل عاجز عن كتابة رسالة قصيرة، يمكن له أن يسود ألف صفحة بالحبر فيما يثبت ذلك. ولأن الكلمات مبتذلة متيسرة لكل رائحٍ وغاد، ولا تعدو وظيفتها على رسم صور متخيلة للمسميات في أذهان البشر، فأنّى لها أن تنقل الأحاسيس والانفعالات والمشاعر؟ فهذه لها ماهية أخرى غير الأوهام، وإذا كانت الأذهان وعاءً لصدى الكلمات، سواء كانت حروفاً مرسومة أو أصواتاً منطوقة، فإن المشاعر وعاؤها القلوب، وللقلوب لغة خاصة لا يتقنها إلا من آمن بها وهام بجمال عطائها، فهي جوهر الحياة وبها يستدل على روح الوجود. ولذا يبدو من الأنسب للمرء حين يمر على سيرة الرجل، أن يذكر نزراً يسيراً من مواقفه، وعدداً قليلاً من الأحداث التي عاصرها سواء، التي مرت به هوناً ومرور الكرام، أو تلك التي شقت عليه بعبء ثقلها الباهض.

هذه النتف الصغيرة واللمام اليسيرة بإمكانها أن تدل أصحاب القلوب الرقيقة والأحاسيس المرهفة وذوي الأبصار التي لا تحجب رؤيتها غشاوة طارئة، على أن ما سيحكى ويُتحدث عنه، كان حقيقة واقعة، وليس محض خيال مخترع ولا وهماً زائفاً. مع ذلك من المؤكد أن ما سوف يقال، لا يمكن لأي أحد أن يعيه تماماً كما جرى، إذا لم يكن قد عاش مع الرجل، وشهد بأم عينيه ذلك. فمتى كان الشهود كالغياب أو السمع كالبصر؟ وهل عقل الحواريون قدرة الرب من غير مائدة تذوقها جوارحهم، أم اطمأن قلب إبراهيم لكلماته من غير أن يسأله

صدقها وهي تسعى على رؤوس الجبال تسمو به فوق أوهام الكلمات وتقذف في قلبه يقين الحضور والمعاينة؟

قضى سنواته الأخيرة على كرسي يجره بيدين نحيفتين، تقبضان بإحكام على مقبض العجلة، وعيناه تتفرسان ما حوله وقد ملأت بالدموع لأي سبب، وأحياناً ليست بالقليلة بلا سبب. الإحساس بالخوف كان يصدر من غيره، وليس منه، فكل من تعلق به بأي نحو من الأواصر، كان ينتابه هاجس مفزع مع كل نظرة يرمقها بهم، ويحسبها إنذاراً أخيراً قبل حلول الكارثة، وأن هذه اللمحة التي طرفت بها عينه تؤرخ للحظة إسدال الستار على جمعهم، وقد اقتربت الساعة التي سوف يَظْلَم فيها كل شيء. صار الخوف من فراقه إحساساً عميقاً استوطن كل من لجأ لظل رعايته يوماً ما.

كان بنظرهم جميعاً، الملاذ الوحيد الذي يلجأ إليه، عندما يقرع الخطر أبوابهم. عيناه شبه المغمضتين، وان صارتا تواصلان التحديق في شيء ما بعيد إلى حد لا نهائي، مع ذلك كان بريقهما نوراً يبدد وحشة الظلام، ويكتم صرخة الفزع. منذ أن فقد القدرة على استعمال ساقيه، وأصبح بعدها عاجزاً عن القيام بغتة. حصل ذلك في يومٍ احتد مزاجه فيه كثيراً، وضاق صدره متبرماً ممتعضاً من تصرفٍ طائشٍ، ارتكبه واحد ممن يدير بعض أعماله. هذا النوع من التصرفات المتهورة ممن لا تعطي لحقوق الناس أهمية ولا اعتباراً، لم يكن يرق له من قبل، وهو في عز شبابه وتمام عافيته، فكيف به الآن بعد تقدم العمر به ودخوله دور

الشيخوخة الفانية؟ فالأريحية في النفس، إذا اجتمعت معها الثقة والرجاء وحداها الأمل، لا يعوز الحي شيئاً بعدها، إنما حين تخلد النفس إلى العجز، وتيأس عن مجاراة الأشخاص وملاحقة الوقائع ومسابقتها؛ وقتئذ تغدو هي ومطالب الحياة في غربة متبادلة. لا يشتركان بشيء، بل ولا يرجو أي منهما الاشتراك فيه، ولا يعود يعنيهما، ولا يستدعي اهتمامهما، ولا يربطهما أي سبب. إن وقع هذا، تمسي النفس في حالٍ أشبه بمن وقع في تيهٍ لا علامة فيه يهتدى بها، وتملكه اليأس والقنوط؛ فيغدو صاحبها ينظر للدنيا نظرة فتور، بل نظرة كراهة ونفور، كما ينظر مُقعدٌ إلى ميدانٍ عدو لا مأرب له فيه. حينئذ يصبح قعود الجسد كأنه واجب وقدر محتوم، بعد أن غادرته الروح، ولم يعد أمامه من حلٍ سوى الاستسلام وانتظار حزم حقائبه لرحلة أخيرة إلى أرض لا إياب منها أبداً.

الشلل حقيقة مُرّة صعب عليه التأقلم معها، أدخلته في عالم غريب لم يستعد لأعرافه وقوانينه، ومع زيادة استيعابه للزوم الرضوخ لناموس الحقيقة الجديدة، زادت معها نوبات البكاء بحرقة، لأنه أحياناً كان يجد نفسه حتى حين يحتاج إلى أن يتمخط، يبذل في ذلك جهداً جهيدًا في سحب منديل ورقي لا وزن له لمسح أنفه، إن أراد فعل ذلك بنفسه دون الاعتماد على غيره. فكيف به إن دعاه جوعه إلى مد يده لزادٍ وشراب، أو اضطرته طبيعته البشرية إلى دخول الحمام. مأزق خلق عنده شعوراً فظيعاً بالعجز، وكان يمكن أن يتحول هذا الشعور إلى شيء مؤذٍ، وقد

تيقن، أنه لن يسير على قدميه مرة أخرى، لولا تدينه العميق وإيمانه الراسخ، فهما من كبحا تسلل الأفكار السلبية.

العصامية أمر ارتبط بتاريخه، فقد تمكن من بناء ذاته وثروته وكل كيانه باستقلالية تامة، ولأنه كان محاطاً أيضاً بحب عائلته وأصدقائه وزملائه، فإنه سعى إلى أن يستعيد قوته ببطء، وتعلم كيف يقوم بأكثر من شيء وهو جالس، وقام بالفعل بكثير من الأشياء بيد واحدة، إذ كان يستخدم يده الأخرى ليبقي على جسمه في وضع مستقيم. لكن إصراره وبراعته لم يمكناه يوماً من دخول السرير بمفرده، وكلما جرب ذلك كانت تنتهي مغامرته بالسقوط عاجزاً تماماً، لتنفجر مآقيه في بكاء مر بلا صوت ولا نشيج، وهو يحاول النهوض بفشل مزمن. لم يكن من بُدٍ أمامه من طلب العون من غير أن يجرؤ على رفع صوته، يزحف إلى مرافقيه بنظرات يائسة مجللة بالاستحياء والانكسار. ورغم طبيعته المتفائلة، ورؤيته الثابتة في قراراته وأحكامه طيلة عمره، لكنه في الحقيقة بات مشوشاً مضطرباً غير متأكد مما سوف يفعله بعد الآن.

النظر إلى الماضي، وهو يواجه مصاعب الحاضر كان يجعله مكتئباً في أغلب الأحيان، لأنه بات يظن أن الماضي كان جميلاً، إنما حقيقة الأمر، أنه نسي متاعبه وأحزانه السابقة فيه، وصار لا يفكر إلا في واقعه الشاق حد المرارة. أضحى من الصعب عليه الإدراك أن لا فرق بين الحالين، وأن عليه العيش بالأمل نفسه الذي كان يملأ روحه، والشعور الغامر بالتفاؤل ذاته الذي كان يفيض من جوانحه وجوارحه. أضحت

الحياة عنده كابوساً متكرراً في كل يوم، بل في كل لحظة، وأصبحت حاجزاً لا يقدر أن يتجاوزه، وعدم كل وسيلة لإيجاد طريقة لإنجاز عمل ما يكسر صمته الهائل.

بدا له وكأن العالم كله قد أغمي عليه، وغدا أصماً أبكماً مجهض الروح، وأن التراب الذي سوف يودع فيه، قد انثال عليه فعلاً منذ اللحظة، ولا سبيل لاستعادة روحه، التي كانت مثل عمود نور وسط ظلام بهيم، ومركب سريع يخرق أكوام الضباب المتكثف على بحر مدلهم، أو سيف فارس أسطوري يشق صفوف الأعداء بلا هوادة ولا تردد كما تخترق السكين الزبدة. والآن صارت جل أمانيه وتوسلاته، أن تنتزع روحه بيسر وراحة وسلام، بل وصل به الحال أن يدعو الله بجاه أحد المقدسين من علماء الدين المعاصرين ممن كان يجله كثيراً، أن يفعل به ذلك، وقد حصل.

صار الكرسي المتحرك بعجلاته اليدوية ملازماً له أكثر من ظله، كأنما يترجى منه عدم الرحيل، كل صباح يدلف به إلى الحمام، وعليه يتناول طعامه ويحتسي شرابه ولم تقو ملازمته له أن تخفف من ولعه بشرب القهوة والشاي. يفارقه فقط عندما ينتقل إلى سيارة، فحينئذٍ يجب أن يطوى الكرسي المتحرك، ريثما يرفع إلى مقعدٍ ما فيها. وبعد أن تُصَف السيارة، يعاد جمع الكرسي بصاحبه من جديد أمام باب السيارة، لينقل إلى مكان ما، وغالباً هو عيادة طبيب أو ردهة مستشفى، حيث تنفتح الأبواب واسعة أمامه.

رحلته الفعلية على هذا الكرسي أخذت وقتاً ليس بالقليل، وشملت عدداً لا يحصى من الأطباء، إلا أن أصعب لحظاته كانت حينما سقط يوماً على وجهه لا يستطيع التحرك فاقداً الشعور بجسده. يرقد على الأرض لا يدرك ملمسها أياً كان، وتمرق أمام عينيه المغمضتين ومضات متلاحقة، وتجول في خاطره صور متسارعة عن قوامه الصلب، وهو يحمل الأثقال ويتحمل المشاق، بينما جل تفكيره كان ساعتها الحصول على مساعدة من شخص ما ليقلبه على ظهره. لم يعي هذه المعونة حين وصلته، إذ كان قد غاب عن الوعي قبل أن تصله، وحين أدركها بعد أسبوع قضاه في تناوب متتال بسرعة بين اليقظة والغياب عن الوعي، وجد ابنه سجاد يقف إلى جانبه بجوار خراطيم مختلفة الأحجام والأنواع تتدلى من جسده موصلة بأجهزة طبية تصفر طوال الوقت.

النهار يمضي ببطء، وهو يتفرس بمن حوله، كأنه طفل ولد للتو. غالباً لا يفهم ما يقولونه، رغم اهتمامه البالغ لمعرفة ما يحيط به، كأنما بقاءه بينهم منوط بفهم ما يدور بينهم، مع أن الأمر لم يكن يعنيه في معظم الأوقات. لم يعد بمستطاعه فعل أي شيء حين يتحرر من أغلال كرسيه، سوى أن يمد رجليه مسنداً ظهره على متكأ مصنوع من وسائد يجمعها قاسم مشرك واحد، وهو تنافر ألوانها وأحجامها وأشكالها. لا مبالاته بمظهرها المتواضع الأقرب للفوضى ليس غريباً، فهي عادته في تواضع ملبسه وسائر شؤون معيشته، وفي مقته لمظاهر الترف والبطر. إنما حين تحضر مبالاته، فإنها سرعان ما تتحول إلى معضلة حقيقية. منها ما

يبدأ حين يأتي ضيف ما لعيادته في مرضه الأخير، فقد كان يصر بطريقة غريبة على سحب ساقيه الهزيلتين الدقيقتين، اللتين غدتا كأنهما غصنا شجرة يابسة جردت من الحياة، لا يُرى فيهما سوى ندوب قديمة، خلفتها كومة متراكمة من سنوات عمل قاسٍ في نقل مواد البناء من الآجر والجص.

يتململ بجسمه المتصلب من كدح السنين والهزيل من آثار المرض، يطلب المسارعة لإعانته على الاعتدال في جلوسه بصوت خافت واه، ولكنه حازم لأقسى ما يمكن للسامع أن يخشى سماعه. بالحقيقة إنه كان يصدر أمراً لممرضيه وجميعهم من عائلته الخاصة، إذ لم يكن يرضَ بالمرة الاستعانة بأي شخصٍ من خارجها. وعلى الرغم من توسل الضيوف به، بأن لا يأبه لمقدمهم، وأن لا يكترث لحضورهم، إلا أن أصواتهم لم تك تجد منفذاً لبلوغ أذنيه المطبقتين عن هذه التضرعات، والمقفلتين عن كل المحاولات العقيمة لإقناعه، بأن قعوده سوف يلحق ضرراً إضافياً بصحته المتداعية أصلاً. يتواصل علو أصواتهم في ضجة صاخبة، وتكاد لا تفهم لكثرتها وتداخلها مع بعضها، وتشبه في علوها ويأسها صرخات غريق، يستنجد بأعمى مصاب بالصمم، وقد أُسدل بينه وبين تضرعه حجاب كثيف، لا ينفذ من خلاله صوت الرعد ولا يخرق دهماءه سنا البرق. كان الأمر يتكرر كثيراً لزحمة محبيه ومتابعيه، مما أصبح غير قابل للاحتمال. ربما أمكن عدّه حدثاً ليس بذي بال ولا شأن لأحد به، لو حصل في اليوم مرة واحدة، أو مرتين، بل

حتى ولو لخمس مرات مثل أوقات صلاة المسلمين، التي واظب عليها من نعومة أظفاره، إنما عدد مرات وقوعه كان إحصاؤها فوق ذلك، ليس لأنه خرق العادة وحسب، بل ولأنه كان أبعد مما يظن أو يُتخيل.

2

كان توافد عواده في مرضه الأخير كثيفاً بأعداد غزيرة، ومن الصعوبة بمكان أن يقوى أحدٌ على وصفه. ربما لو قيل: أن باب البيت الخارجي لم يكن يغلق طيلة النهار بتمامه وفي جزء ليس بالقصير من الليل، يمكن عندها أن يرسم الخيال صورة في ذهن من لم يحضر ويرى جمعهم حينئذ، ومع ذلك فإنها تبقى صورة فقط، لأنها مهما كان حسنة وجميلة؛ فإنها تبقى تعكس المظهر والهيئة الخارجية وحسب، أما الحقيقة فلا، لأنهما لم يعكسا الجوهر يوماً ما، فكيف يكونان هما الحقيقة نفسها؟ بالطبع، قد فات الكثير من الأصدقاء والمعارف حضور تلك الساعات، مع أنه كان حفياً لحد المبالغة بالسؤال عنهم، يغلف سؤاله بنبرة عتاب حزين يتهدج بها صوته كأنها حشرجة، بل الأجدر أن يقال، أنها عبرة مستدامة تخنقه، ينتهك سترها ويخرق الحجاب الذي يخفيها أهون حادث وأيسر موقف. لم يكن يطالبهم برد المعروف، ولكنه كان مسكوناً بقلق لا ينعم معه براحة، ويصاحبه ألم ليس بقليل عليهم، لا يفتأ معه بأن يردد سؤالاً لا يمل من تكراره، لماذا لا يحضرون؟ هل أصابهم مكروه، أم إن خاطرهم لم يزل مكسوراً، لأن عطاءه الذي يأبى أن يسميه جميلاً، لم يكن كافياً لسد احتياجهم، ولا لأن يهدأ روعهم من فزع ما حل بهم من مصائب الدنيا ونوائبها؟. ومع أنهم لم يكونوا يبتهجون لرؤيته على هذه الحال، إلا أن حبوره بهم كان عظيماً، وكان

الجميع يبادلونه الابتسام عندما يتحدثون إليه، أما هو فلم يكن يدور في خلده إلا امر واحد، إذا كان الآتي هو الألم والوجع الأكبر فليحل مسرعاً، وننتهي من هذا الهراء والانتظار العبثي.

لو كان لكثرة البكاء من جائزة تمنح أو لقب يُعطى؛ لمُنِحَ له بلا منافس، ولأستحق لقب البكّاء عن استحقاق وجدارة. ولو عاش أي أمرؤ معه لأسبوع واحد فقط؛ لصدق بعدها بكل يسر وسهولة بالرواية المشهورة أن علياً بن الحسين ظل يبكي مصرع أبيه في كربلاء العمر كله. في الواقع لم يكن يجدر تسميته بالبكّاء وحسب حين تستدر دمعته، بل كان نوّاحاً حقيقياً. كانت دموعه تهطل من مآقيه مثل سيل جارف فُقِدَتْ السيطرة عليه، بعد أن كسرت بوابات سد يحبسه، ليغرق بفيضان دموعه روحه، ولكن ليس بالجزع ولا حتى بالأسى والحزن، بل بالحب. مشاعره الدافئة ورقته البالغة وحسه المرهف لم يكن يجيد التعبير عنها بكلمات منمقة أو أبيات شعر جميلة، فقد كان بسيطاً في كلماته، متواضعاً في لغته، إنما بعواطفٍ جياشة، تستدر دمعته أكثر من ضحكته، ووجد فيها مخرجاً لمكنوناته، وحين يبكي يخلب أذهان السامعين، ويخال من يراه، أنه يصيح: هذه هي لغتي، وهذا الصوت هو وخز دمي. أصل بكاءه نبع يتغذى من رقة قلبه، وعندما يجري فكان شبيه برقة الندى في نزوله أول الصباح، يضفي لون الحياة على أوراق الشجر ويرسم الأمل.

هذه السمات انحدرت انحدار الإرث من الخلف للسلف لابنه سجاد، الذي حمل هو الآخر في دواخله أشجاناً وصعاباً في التكيف مع محيطه القاسي البارد، فوجد في حرارة دموعه سبيلاً للتأقلم معها، ووسيلة لدرء خوفه أو للشكوى منها، ومفتاحاً لفك مغاليقها حين تضيق عليه. سمات كأنها ولدت معه، وخصال وجدانية لا علاقة لها بالعاطفة والانفعالات، بل مرتبطة بشخصيته الفريدة التي اختارت الجمال الداخلي، وزهدت بإفراط بجمال الهندام وبريق المظهر، حاله في ذلك حال والده، فليس غريباً أن ترى ثيابه تعاني من الإهمال في الترتيب والتنسيق، أو أن لحيته نابتة منذ أيام وشعره بلا تصفيف أو أطول من المألوف من غير أن يبدو عليه أنه قام بمحاولة لتشذيبه أو أنه كان مهتماً بذلك أصلاً.

كثرة ضيوفه جعلت العناية بهم وليس به مهمة ليست باليسيرة أبداً. "ليست باليسيرة"، عبارة من يسمعها أو يقرأها يدرك للوهلة الأولى أن المجاملة تطفح منها، ويطغى عليها الإبهام، لأن الحاج "حامد المهدي" لو سمع بكلمة أخرى من نوع الكلمات التي ترد في خاطر من يتصور المشهد الآن، لناله منه لوم و تأنيب وتقريع، بل وحتى لما تردد في توبيخه بعصبية مفرطة وانفعال زائد. محاولات الشكوى البائسة من الكد طوال النهار في خدمة الضيوف، والتعب والإرهاق الذي أصاب المضيفين، لم تك تعني له شيئاً، ولا يهمه أمر أصحابها؛ فعندما خرج سجاد من السجن، توافد الناس عليه يهنئونه وأسرته منشرحين بزوال

المآسي التي أرهقت كاهلهم، ومع أنهم كانوا يعللون أنفسهم بهذا الأمل، إلا إنه لن يكون كذلك، بل سيبقى الخوف والقلق قائمين لفترة طويلة.

فرح غامر شعر معه ابنه، بأنه عريس الحفل الذي لم ينقطع لسبعة أيام أو ثمانية وربما حتى عشرة. الحقيقة لا أحد يمكنه أن يذكر رقماً دقيقاً، فكل ما يُزْعَم هو تخمينات ليس إلّا، فمن كان بإمكانه أن يحدس عدد من قصد بيتهم، ويمم وجهه نحوه؟ بحفل إطلاق سراح سجاد، تواصل نحر الذبائح وتوزيع لذيذ الشراب وأدسم الطعام وأطيبه، متزامناً مع ابتسامات كثيرة ملأت أركان البيت الفسيح بطابقيه الواسعين وغرفه المتعددة. كان انطلاق الضحكات اسهل من تبادل الكلمات، وأرواح المحتفلين الحافين بعودة الغائب عذبة شفافة خفيفة، يلونها فرح دافق بألوان مشرقة زاهية كأنها قوس قزح أتبع غيثاً وفيراً من السماء، غسل جميع الأدران والأحزان في آن واحد. حينئذٍ راود ابنه إحساسٌ، بأنه ضيف شرف من درجة خاصة تفوق المستويات كافة و الاعتبارات جميعاً، ولن يناله أي انتقاد حتى من الحاج نفسه، فهو لم يعر سلوكه أي انتباه، ولم يلتفت إلى ما يقوم به، ولم يصدر له توجيهاً طيلة ثلاثة أيام تلون اطلاق سراحه؛ فملأت النشوة رأسه وروحه، وواصل الجلوس مع الضيوف يبادلهم الطرائف، ويرد أسئلتهم الفضولية غير المجدية في اغلب الأحيان، ويقايض كلمات الترحيب والمودة بابتسامة عريضة تارة وبالضحك تارة أخرى، بل حتى يستمتع بمشاطرتهم ما يقدم لهم من أكل وشرب.

في تلك الأثناء كان أقرباؤه من الشباب يواصلون انهماكهم بتقديم خدمة الضيافة، فيما النساء منشغلات وراء حجاب فاصل في ساحة المطبخ الفسيحة التي امتدت إلى معظم الحديقة الخلفية، في صب الطعام في الصحون وتحضير المزيد منه بالدأب على الاستمرار في طهيه. كان الجميع نشطين مملوئين بفرح غامر، ويعيشون نشوة ولادة زهرة جديدة عادت للحياة، وقد غمرتهم سعادة عظيمة بنهاية عهد من ظلام خطر، طالما كان الناس يلتمسون فيه بصيصاً من الضوء، يدلهم على الذين تحدوا الظلام. إنما كان رجاؤهم كبحث العميان عن إبرة في كومة قش، بحث بلا أمل ولا رجاء، لأنهم لم يظفروا لا ببريق ولا لمعان لهذا النور حتى لو كان خافتاً. اليوم جاءت بشارة انقضاء الظلمة وانبلاج النور، ولو بعد أن التهمت مقصلة الإعدام أحد أبناء العائلة، وووارت آخر لعقد كامل في زنزانة مظلمة، لا يؤنسه فيها أحدٌ سوى أمل باهت سريع التلاشي.

إحساس ولده الزائف، بأنه ضيف الشرف وعريس الحفل، أطاح به الحاج في صيحة واحدة، وتناثر ذلك الوهم مبعثراً حيث يجلس الجمع الغفير من الزوار في أرجاء الصالتين الفسيحتين المتداخلتين، إذ ما من فاصل بينهما سوى نصف جدار. تناثر غروره وتلاشت أوهامه مثل حطام إبريق زجاجي مزخرف بأبهى الألوان ألقى به تاجر استبد به الغضب، لأنه سمع للتو إن سفنه قد غرقت جميعاً، وأنه خسر تجارته بالكامل، وأصبح بعدها مفلساً لا يملك درهماً ولا ديناراً. شدّ الحاج وجهه في تزمتٍ

صارم أخفى معه كل ما فيه من تجاعيد، واصبح وجهه كجلد طبلة مشدودة، وعيناه غدتا كأنهما فوهتا بندقية معدة للإطلاق، ولسانه صار سوطاً لاذعاً.

قم وزع الشراب والطعام! ألا تستحي من نفسك تجلس كأنك خطار وافد؟ بهذه الصرخة تمزق حياء صمته الطويل، وهو يوبخ ابنه.

جيش من العيون انصبت على الحاج، تندفع مع سيل عارم من كلمات الترضية والإقناع، سواء من أفراد العائلة أومن الضيوف، بأن لا حاجة للغائب العائد من غيبته الطويلة ، لأن في الشباب الحاضر كفاية وزيادة، كما إن الجميع يريد الجلوس معه، ليشبعوا من رؤيته. ماذا يقال عن تلك اللحظة، وكيف يمكن لأحد أن ينعت سورة غضبه وقوة حزمه فيها؟ ربما لو كانت خيمة البدوي حلاً ناجعاً بديلاً ينفع للوقاية من إعصار، تذعر له الشواطئ الأمريكية وهو يقتلع أكواخ وبيوت الفقراء في الجزر الكاريبية، لنفعت أي واحدة من كلماتهم بل الأحرى توسلهم أو حتى تضرعهم. من يعرفه جيداً سوف يدرك جازماً أنها لم تكن لتقنعه أبداً، لأن نجله قد انتهك المحظور واعتدى على قداسة القيم المحافظة التي يتمسك بها.

مع ذلك حين يبدي هذا الالتزام الغريب بقيمه؛ فليس أمام المرء إلا الإعجاب به، لأن شخصيته الخليطة بين الريفية والمدنية، مع أنها كانت متواضعة للغاية، ولكنها كانت تنبض بالحياة وبالقيم العميقة. شخصية تطفح طيبة وإنسانية، ويبلغ منسوبها الفائض من السعة، بحيث

لو أن شخصاً ما التقاه لأول مرة لشعر على الفور، أنها ليست لحظة عادية، بل هي استثنائية المشاعر، فياضة الإنسانية، تختلط فيها الأحاسيس، وتجتمع عندها مفترقات الوجدان، وهو يرى الرجل مستعداً لتقاسم معظم ما يملك معه بلا سبب معقول يدعوه لذلك.

بدا مشهد تقاطر سكان الحي وجواره المتواصل عليه، كما لو أن حشودهم انخرطت في رحلة حج لمقام مقدس، لعلهم فعلوا ذلك كي يكفروا عن ذنب انقطاعهم عن مسكنه في السنوات العشر الأخيرة، بعد أن اصبح موضعاً للشبهات ومحلاً للشكوك الأمنية. فأي شيء يفعله كان بالإمكان أن يصبح تهمة خطيرة تتعلق بزعزعة الأمن الوطني حتى لو كان أمراً روتينياً يقوم به أي شخص آخر. ففي يوم مات ابن شقيق الحاج، وبحسب العادة المتبعة أقيم له مجلس عزاء بنصب (خيمة) قرب البيت استمر لثلاثة أيام متتالية، وقدم طعام العشاء للحاضرين في اليوم الثالث من العزاء الذي يعرف بالختمة، بحسب الاصطلاح البغدادي بحضور ما يتعارف عليه "بالملا" لنعي الميت بقراءة قصائد في مدح النبي وآله وتعداد صفات المتوفى الحميدة بكلمات حزينة باكية. كان الأمر غاية في البساطة، ولم يفكر أي من المعزين بأنه قد ارتكب خطأً بحضور العزاء، إلا رجال الأمن الذين استدعوا الحاج وشقيقه إلى مديرية الأمن للاستجواب بتهمة عقد تجمع ديني محظور، ولم يكن النفي يجدي نفعاً لولا شهادة الوفاة الرسمية التي كانت بجيب

والد الميت لحسن حظهما، والتي كانت شفيعاً مقبولاً للخلاص من مأزق دُبِرَ بسعي من وشاة غامضين، وكان يمكن له أن يكون بعواقب مفجعة.

لم يعر الحاج للوشايات اهتماماً ولم يلق لها بالاً، فما كان ذلك ليحز في قلبه أكثر من هجران الناس له وتجنبهم إياه، أوترك شقيقه عبد الله المهدي لداره الملاصقة لبيته تجنباً للملاحقة الأمنية. كان يمكن له أن يتحمل العطش والجوع أسبوعاً، أو حتى أسبوعين, ولعل بإمكانه أن يقضي سنوات من عمره مشرداً دون سقف فوقه يحميه, لكنه لم يكن يستطيع تحمل الوحدة، فقد كانت أسوأ عذاباته وأقسى آلامه، وهي التي سحقته بشعور جارف، بأنه وأسرته لا يأبه أحد بهم، ولم يعد أمراً ذا بال لأي كان على وجه هذه المعمورة التي صارت أمامه كالخرابة. وكما إن التفاؤل والفرح قادرٌ على تغيير حياة الأنسان, فاليأس والحزن قادرٌ أيضاً على فعل ذلك وبسرعة اكبر. فعلى الرغم من أن سائر هذه المشاق لم تستدع صدور أي رد فعل منه، لا بكلمة عتاب ولا بغيبة في ظهر أحد، إنما كانت سبباً حقيقياً مباشراً في زيادة منسوب الحزن، الذي طفح على وجهه تغضنات وتجاعيد، وجعلته يسكن في واد من الدموع.

كان يثير الطمع ويغري النفوس بالطلب منه، ومع ذلك من ارتكب هذا الإثم معه نفرٌ قليل من الناس العاديين، وكثيرٌ من الأشرار الذين ابتزوه ليدفع شرهم عنه وعن المتعلقين به. بذل حامد المهدي جهداً جهيداً، وأنفق مالاً كثيراً على هذا الشرطي وذاك المسؤول الأمني لعله يحظى بخبرٍ صادقٍ عن ابنه، إنما وعودهم كانت كذباً محضاً وهراءً لا

يسوى شروى نقير، وكل ما فعلوه كان لأجل استنزاف الأموال منه ليس غير، إلّا واحد منهم فقط سمع بقصته وتأثر لحاله ولمصيبته، فسعى صادقاً وبذل جهداً خارقاً، وحقق ما لم يكن يصبو له الحاج حتى في أحلامه. رجل أمن فعل ذلك بدون أن يقبل رشوة، بل إنه رد الهدية، وقال له: حين يخرج سجاد من السجن وتنحر الذبائح فرحاً بإيابه، اعطني واحدة منها. لكن حينما خرج من السجن بعد أكثر من عشرة أعوام، لم تجدِ محاولات العثور على الرجل في بلوغ مبتغاها، رغم أنه تقصى آثاره في كل مكان يحتمل وجوده فيه، وعندما حققت حملة البحث هدفها، كان الرجل قد غادر الدنيا فقيراً معوزاً. لم ترفق به الدنيا، لا في زمن من كان يعمل لأجلهم من الطغاة العابثين، ولا بعد أن انتهت حكايتهم. إلّا إن ذكراه ظلت منقوشة تفوح عطراً، وتذكره بجمال الفطرة الإنسانية. ما من إنسان رغم ما قد يبدو عليه من سوء، أو من مظهر اضطر لارتدائه تحت ضغط ظرف ما، أو لخطأ في قرارٍ اتخذه عن جهلٍ أو غيبة وعي، إلّا وفيه نور باهر، تخفيه البيئة الفاسدة التي أناخ فيها رحله، وقد لا يفطن له حتى صاحبه، فضلاً من أن يدركه غيره، وما عليه إلا إن يزيح الأستار عنه وسوف يكشف جمال روحه، ويكتشف نقاء الفطرة الإنسانية التي بها ومنها كان ويكون.

ابتزاز الحاج المهدي لم يحصل في الثمانينيات حين كان ولداه رهن الاعتقال على أمل إنقاذهما وحسب، بل حتى بعد أن تسلم ما أفترض أنها جثة مجتبى. استعان بكل الذي يعرفهم، كان يدور ويخرج

من الفجر ولا يعود إلا بعد أن تتوارى الشمس وتسلم نورها لليل بهيم. لم يترك مركزاً أمنياً إلا وذهب إليه، ولكن جواب واحد كان بانتظاره، لا شيء. كان يريد فقط أن يتأكد أنهم أحياء. اختزلت طموحاته وأمنياته، بل حياته في أمر واحد أن يعرف أنهم ما برحوا يواصلون التنفس من هواء هذا الكوكب مثل سائر المخلوقات، ولكن أمنيته كانت أشبه بحلم مستحيل الوقوع. لم يجد تعويضاً لخيبته المستمرة سوى الجلوس وحيداً، أو مع زوجته "زهرة المهدي" التي عافت نفسها الأكل واتشحت بالسواد دوماً، تواجه باب الدار عسى أن يدلف منها أحدهما. يبكيان بصمت تفضحه دموع تسبق أي حرف يخرج من بين الشفاه، وأصبح الحاج دائم الصمت عصبياً، يصرخ في وجه أي أحد يسأله عن أي شيء، وعلامات الضيق ترتسم على وجهه ليل نهار، وهو يرى زهرته قد تحولت إلى شبح صامت يختار زوايا البيت لتتكور بحزنها فيها. مع ذلك ظل يعيش أملاً زائفاً، بأن "مجتبى" لم يزل حياً يرزق، وبدأ ضابط أمن لئيم بابتزازه وأخذ الأموال منه، مقابل أن يمرر له خبراً واحداً، بانه لم يشنق بعد. خمسون الف دينار، وكانت حينها تعادل مائة وخمسين الف دولار أمريكي تقريباً، ثم مجموعة مصوغات ذهبية وبعدها أثاث منزلي دفعت لهذا الضابط لتأمين الخبر المزعوم، ولكن بلا جدوى. ثم طلب منه أصول البيت العقارية، حينها فقط امتنع عن الاسترسال في اللعبة القذرة، وقرر التوقف عن مجاراته فيها. استكان لحزنه ولخيبة امله، وأدرك أنه لن يحصل على شيء أبداً.

فورة عواطفه وعاصفة الهواجس التي عصفت برأسه، جرته مرة إلى مدينة تبعد عن العاصمة أكثر من مائة كيلومتر، من أجل لقاء مسؤول، بعد أن تلقى وعداً من أحدهم بأنه سوف يساعده في تتبع أخبار أولاده. ذهب منقاداً لأمانيه الزائفة، ودخل على مسؤول أمني وحزبي متقدم، وبدأ يشرح قصة اعتقال أولاده، وقد غارت عيناه في وجهه المرهق الأصفر كأنه قام للتو من مرض خطير، إلا أن هذا المسؤول شمخ بأنفه مستنكفاً عن النظر إليه، وبدأ يتكلم بتعجرف وتكبر، ويقول بلا مواربة ولا خجل وبدون أي مراعاة لمشاعر الرجل الثكلان بولديه، أنه لن يتحدث معه، في شأن عملاء خونة، وإنه لا يقدم مساعدة لأمثالهم ولعوائلهم. وقتها انتبه حامد المهدي من غفلته، وهب واقفاً منتفضاً بأعلى ما يمكن له من الشموخ والعلو، وهدر بصوته: وهل تظن أنك فعلاً تقدر على فعل شيء لي، الله وحده هو من يقدر على فعل ذلك، وحاجتي عنده لا عندك، وخرج غير آبه به، فيما كانت الدهشة ترتسم على وجه المسؤول والوسيط معاً.

في يوم أسرّ أحد السجناء العاملين في مرافق السجن لسجاد بأن عليه ادعاء التوعك؛ ليجمعه بشخص في مستوصف خاص بالسجن، والحقيقة أنه لم يكن مستوصفاً إلاّ بالاسم، إذ لم يكن سوى غرفة فيها سريران وبضعة مضادات حيوية ومسكنات آلام ليس إلا. امتثل سجاد للطلب، وذهب إلى المستوصف، وهناك التقى مدير أحد الأقسام في السجن المركزي، وأبلغه هذا الأخير بسرعة خاطفة، وهو يرتجف خوفاً

خشية أن يراه عنصر أمني مع سجاد، أن والده يبلغه السلام، وانصرف كالبرق. مع غرابة تصرف المدير، إلا أنه لم يأبه للأمر كثيراً، وخبرة السنوات الصعبة جعلته يتعامل بحذر واحتراس مع هذا النوع من التصرفات الشاذة الخارجة عن طبيعة سير الوقائع في السجن، واحتمل أنها واحدة من مكائد الأمن لتوريطه بتهمة التواصل مع جهة خارج السجن، وهي تهمة دفع كثير من السجناء ثمناً غالياً لها، بوقوعهم في شباك هذه الفخاخ، أوصلت بعضهم إلى الموت. بعد سنوات سمحت الجهات الأمنية له بإجراء زيارة خاصة، وفي تلك الزيارة سمع من والده، أن هذا الرجل ادعى أنه كثيراً ما التقاه، وانه ساعده كثيراً في تخفيف مصاعب السجن، وقبض بالطبع لأجل ذلك الكثير من الأموال.

مسلسل الابتزاز وقصصه الكثيرة لم يتوقف حتى بعد خروج سجاد من السجن، فمرة بسبب عمل الحاج حامد المهدي في العقارات، استولى ضابط أمن على شقة أسكن فيها عشيقته، ولم يتخلص من احتلاله لها إلّا بعد فضيحة أخلاقية، أجبرته على الفرار هو وعشيقته خشية الملاحقة من السلطات، التي لحسن الحظ كانت النميمة والوشاية بين أفرادها في اعلى منسوب، وكانت السلطة قاسية في عقابها لحدٍ مرعب على اتباعها، خصوصاً حين تصل معلومة تتعلق بالرشاوي، خشية أن يكون ذلك منفذاً لخلل امني، وهو أمر لم تكن تتساهل معه بالمرة. وهذا ما وفر للحاج فرصاً عديدة للتخلص من الابتزاز، عندما كانت فضائحهم تضطرهم للفرار والتواري بعيداً عن أعين المتحسسين

أخبارهم. ولكن هذا كان حتى نهاية ثمانينيات القرن العشرين، أما حين انهار اقتصاد الدولة بعد غزو الكويت، فقد أصبحت الرشوة أمراً عادياً في مرافق الدولة حتى الأمنية منها، وفيها استدعي الحاج المهدي وابنه، وحُذرِا من شبهات تحوم على وضعهم الأمني، ولُوح لهم بتقديم رشوة مقابل غض النظر. لم يبد الحاج استجابة كافية لهذا التلميح؛ فوجد سجاد نفسه من جديد في المعتقل تحت ذريعة الاحتراز الأمني. ولم يطلق سراحه إلّا بعد أشهر ثلاثة من مفاوضات تحت طائلة التصعيد، انتهت بتقديم سيارة لمدير الأمن. ولم ينفع قرار التواري عن العيون هرباً من الملاحقات الأمنية في منع الابتزاز، فقد كانت عناصر الأمن تعيش حالة فقر مادي بعد أن تهاوى دعم السلطة لأعوانها الذين بلغوا من الكثرة حداً لا تطيق سد نهمهم للمال الذي نمت أجسادهم ونفوسهم عليه. براعتهم في ابتكار طرق الابتزاز طالت أشقائه أيضاً، بتهمة التستر على هرب سجاد، وباتت مخازنهم التجارية مرتعاً مستداماً دائما لعناصر الأمن، يأخذون منها ما يحلو بأعينهم من أقمشة وعطور، فلا أحد يمكنه العيش بسلام آنذاك حتى لو لم يكن متورطاً في السياسة؟

كل شيء في البلد غدا عبثاً وجنوناً، وأصبح غابة متخمة بوحوش ضارية موتورة من الخير والعدل، لا ترويها أنهار الدم النازف، تتسلط على رقاب الشعب بقوة هائلة، ولا تدخر جهداً في إشاعة الظلم والقهر، تستعمل جبروتها وتسلطها وسيلة لإذلال كل ذي كرامة، وتبتز بقهر وعنجهية وظلم كل ميسور، بذريعة معاداة السلطة وخيانة الوطن. سلطة

قمع بلغت ذروة الطغيان والجبروت والقسوة، وصارت كأنها نمرود إبراهيم، تقول أنا احيي وأميت. القوة سلاحها الوحيد للبقاء في السلطة، وبها ارتكبت أنواع الانتهاكات وأصناف الجرائم. أضاعت القيم الإنسانية والأخلاق السوية، ونشرت عقيدة القوة الباغية وجمعتها مع الرذيلة؛ فالتقت مصالح الفجرة المجرمين مع المصابين بجنون التطرف والتسلط والعظمة، وأنتجوا منظومة قيم مجردة من أي نزعة إنسانية سوية، فكانت النتيجة بطشاً وظلماً، وجبروتاً وتدميراً، واستعباداً ونزفاً للدم في كل مكان، وتشظياً وتجزئة وتشتتاً، وسيادة للظلم والطغيان والغطرسة، ليس في تلك الحقبة وحسب، بل حتى بعد انهيار النظام وسقوطه، لأنها غرست جميع هذا في عموم المجتمع.

3

لم يكن قديساً ولا إنساناً كاملاً، فمن مثالبه الكبرى، أنه رجل أمي لا يجيد القراءة ولا الكتابة، بل إنه لم يجرب حتى الذهاب إلى كتاتيب الملالي المنتشرة آنذاك كمصدر وحيد للتعليم لأكثر الطبقات الاجتماعية وخصوصاً الشعبية منها، ولم يجار بذلك شقيقه (عبد الله المهدي) الذي ذهب لها وتعلم فيها. تفوق شقيقه صار بعدئذ سبباً مهماً وحافزاً قوياً لقبول مشاركته له في بعض أعماله الناجحة، مع أنه لم يكن يجيدها مثله، أو إن حظه لم يكن حسناً كحظ الحاج حامد الذي كان الرزق يجري سعياً له، لا كما يسعى كل الناس بحثاً عن رزق لا يعرفون أين يختبأ، وفي أي من خزائن السماء يتوارى. ومن يسمع بعضاً من حكاياته الغريبة سوف يعجب فعلاً للحظ الوافر الذي يملكه في جني الأموال.

لماذا لم يلتحق بالمدرسة ولا بكتاتيب الملالي، ولماذا جاء والده مهاجراً من الريف يحمله في حضنه مع أشقائه، ولا يربو حينها سنه على الثلاث سنوات فقط؟ سران ظل الجواب عنهما أحجية لا يُعرف لها حلاً، ومن كان يعرفه لم يكشف عنه لسبب أو آخر. كان مثله مثل كثير ممن له قصة خاصة به يحملها في أغوار نفسه، ولا يود مشاركتها الآخرين، وكلما مضى عليه الزمن سائراً به من عنفوان الصبا إلى ذبول الشيخوخة، دفعها عميقاً في دواخله خشيةً عليها من الظهور. ظلت تدور

في نفسه طيلة العمر جدلية بين محاولة تأتيه من الخارج تحثه على كشف السر وبيان اللغز المجهول، وأخرى من الداخل للبوح به والخلاص من ثقله. ربما مر زمن يُظن فيه، أن ما كان خاصاً به أوشك أن يصبح مباحاً للعموم، ولكن في تلك اللحظة الحرجة يتلاشى كل شيء، ويقفل السر عائداً إلى قوقعته خشية الارتطام بعقبة اجتماعية، لأن العقبات الاجتماعية حدود مقدسة وخطوط حمراء لا يُقوى على تجاوزها. ليغدو قلبه الحاضن لحل الأحجية صخرة صماء لا تنطق، وعقب انطفاء العمر غدا الأمر لغزاً لا حل له أبداً، وهكذا أيضاً كان الجواب عن السؤال الآخر، لماذا هاجر والده من الريف؟

عائلة المهدي كانت تملك أراضي زراعية شاسعة تربو على المائة دونم من تركة الجد الأكبر، وظلت تدر خيرها الوفير على عمه "فخري المهدي" الذي لم يتركها إلا حين غادرها بعروج روحه إلى عالم لا تحجز الأسرار فيه، عالم لا يسوده التزاحم والنزاعات، ولا تثقله المادة بظلماتها فتضيق رحابته وتطفئ أنواره. كما إن عطاء المائة دونم لم ينقطع عن والده سعيد المهدي رغم جفائه عنها وهجره لها. ثم لماذا يستبدل شغلاً لا يشكو عوزاً منه في تلك الأرض مع وفرة عطائه، بعملٍ آخر لا يقل شقاءً عنه في بيع ملابس مستعملة للفقراء والمعدمين؟ مهنة جديدة لا يبدو أنها أحدثت تغييراً في مستواه المعيشي ولا حسنت من وضعه الطبقي، ولم تكن هدفاً ولا بغية لأحدٍ من طالبي الثراء، خصوصاً حين تكون في سوق شعبي حين ينفض تقصده أسراب الغربان وقطعان

طوافة من الخراف والماعز، ويقع في منطقة تموت مع وقت الغروب بمنازلها المنخفضة المتباعدة، ولا تشذ عنها سوى مآذن خالية من رفاهية النقوش والرسوم المزخرفة، وتظهر من بعيد كأنها مداخن مصنع مهجور.

هجر الفلاحون الريف واستقروا في المدينة، لأنهم كانوا يشكون فقراً مدقعاً فيه وظلماً فاحشاً من الإقطاع ورجاله، لكن هذا احتمال لم يكن وارداً في حالة "سعيد المهدي" حين جفا مزرعته في أوائل عشرينيات القرن العشرين، فلم يكن الإقطاعيون قد تملكوا بعد زمام الأمر بصورة محكمة لا في قريتهم ولا حتى في أي من أراضي المقاطعة (لواء الكوت كما كان يسمى آنذاك) الواسعة الواقعة جنوب العاصمة بغداد. آخرون نزحوا عن أراضيهم لانهم انخرطوا في نزاعات محلية مع عشيرة أخرى تطورت إلى ثأر متبادل، والثأر واحدٌ من علامات الريف الشهيرة، وعنصر مهم في ثقافة مجتمع قائم على القبلية، أبرز قيمه "العار"؛ فحين يُقتل فردٌ من العشيرة يصبح سُبة في جبينها، تنال من تاريخها ومن مستقبلها، فيتحرك رد الفعل، لتغدو عائلة القتيل بجميع أفرادها مسؤولة عن الأخذ بثأره، كما إن عائلة القاتل تمسي مستهدفة كلها هي الأخرى ويصبح الهدف الأسمى محو العار، ورد الاعتبار للقبيلة وتاريخها، وإعادة هيبتها وكرامتها داخل مجتمعها الريفي.

مرور الوقت لا يعني شيئاً لدوامة الثأر هذه؛ فحفرة الدم ليست حدثاً عابراً يمكن نسيانه، بل تبقى حيّة نضرة، وقد يمر زمن طويل ويطمس الكثير من الشخوص والأحداث، غير أنه ينحرف بعيداً عنها، يخشى أن

يلمسها، كما تفعل الرياح بكثبان الصحراء، فهي تطيح بها وتغير محياها، بل ويحسب الناظر أنها قد خلقت عالماً جديداً غير الذي كان، لكن الحقيقة أن الصحراء تظل كما هي، لا يتغير شيء من طبيعتها، وتبقى قاحلة لا تسعف العطشى، وأي عابر يمر بها لا يملك من خيار سوى الرحيل عنها؛ لذا كان الجلاء حلاً يفرضه المنطق لإيقاف فورة الدم الهائجة التي لا تموت به، ولكنها تسكن وتهدأ بالنزوح.

إنما عائلة مسالمة وديعة مثل عائلة المهدي من المستبعد لحد بعيد أن تتورط في هكذا مشاحنات، بل هي أصلاً لا تملك عداوات، فما من احد على وجه البسيطة يعرف إن لهم عداوة مع أحد، كما إن احتفاظ باقي العائلة بالأرض واستمرار التزاور بين المقيمين والنازحين لا يبقي لفرضية الهرب من الثأر أي معنى. وبقى أمر هذه الهجرة لغزاً لا حل له، ولم يجد جواباً يرضي فضول من أراد معرفته. وهكذا طوى الزمن سر هجرة "المهدي الكبير" كما طوى التاريخ أسراراً كثيرة. وبعض من هذه المطويات في قلب الزمن قد يكون من الخير أن لا نعرفها، فلولاها ما كان أن يعرف الرجل ولا تعرف حكايته، وربما هو نفسه ما كان قد بلغ هذا الاحترام العظيم، ولا تلك الهيبة العظيمة التي شهد له بها من عاصره وتعامل معه، ولا امتلك الثروة الهائلة التي تمتع بها من انتسب له وخالطه، ولا ظفر بذلك الذكر الحسن الذي خلّفه وراءه.

من المؤكد أنه لم يخطر ببال أحد من أولئك المهاجرين أو النازحين أي عالم مجنون بانتظارهم، ولربما ترددوا في مغادرة محل يعرفون

تضاريسه جيداً بالذهاب إلى عالم مجهول، لعل أحلامهم بسعة الرزق الوفير والجاه العظيم في مجاورة الحضر دفعتهم للإسراع بالرحيل. وبما أنهم كانوا قد اختاروا المغامرة، فيجدر بهم أن يكونوا مستعدين للذهاب حتى النهاية، وإن اعتقدوا انهم سوف يمرون بمرتفعات ومنحدرات، وانه أفضل لهم من البقاء في قرية لا تعرف الأشياء فيها، سوى أن تدور في مكانها بقالب ثابت، كما تدور دابة الساقية. الهجرة خيار ليس بالسهل، وعدد ليس قليل من الناس ينخرط فيه سعياً وراء أحلامه البعيدة التي لا تجد محلاً لها في واقعه ولا تنالها إمكانياته، أو يلجأ لهذا الخيار اندفاعاً بانفعالات آنية في مواقف طارئة تصيبهم بهلع عنيف، لكن ما أن تسير سفينة الحياة بهم حتى يصابوا بالفزع، ويتوسلوا بها كي تتوقف وتعود بهم إلى المرفأ الذي أبحروا منه، يبتغون السلامة هرباً من أول عصف للريح، ولا يُعرف حينئذ ما الذى يريدونه حقاً من حياتهم؟ الحياة تشبه لعبة عنيفة، تقتضي أحياناً بأن يرمي المرء بنفسه مجازفاً من علو لبلوغ ممر الأمان، وأن يسقط وينهض من كبوته، وأن يتسلق الصخور الجرداء لبلوغ قمة علو النفس، وان لم يفعل ذلك؛ فعليه أن يعيش قانعاً ذليلاً.

بعد كل هذا ينبثق السؤال، ترى هل عائلة المهدي مع قرارها الغامض بالهجرة، لو كانت تعلم بجنون الفوضى والعبث والجريمة التي سوف تمر عليهم، أكانوا يواصلون مسيرهم، أم كانوا سيؤثرون البقاء في ريفهم الهادئ؟ لأنهم من تلك اللحظة ولأمد بعيد سوف يُختبرون بالألم، كما يُختبرون بالغبطة والفرح، وبالأحلام الكبيرة كما بفقدان الأمل

والرجاء، وستمر عليهم لحظات عصيبة، تسير الحياة بهم في شعاب مظلمة، يبدو معها أن لا أمل في الوصول إلى شيء من السلام والأمان؛ ووقتئذٍ لن يعودوا قادرين على احتواء العواصف التي تهب عليهم سواء من أرجاء أرواحهم المتعبة من خيبات الأمل أو مما يحيط بهم من عالمٍ جلف جاف غليظ وقاسٍ إلى أبشع الحدود.

رغم تواضعه، فقد كان يحوز احتراماً وهيبة يحجزان تلك الميول الغريزية عند جل من يتعامل معه. كان على أتم الأهبة وغاية الاستعداد لمنح أي شيء يُطلب منه بدون أي مقابل، ولا يحفل بكلمات الشكر والامتنان. أي ادعاء أمامه بالعوز والحاجة وإن خلا تماماً من الدليل والبرهان، كان كافياً لإفراغ جيوبه، ولا يهمه بعدها إن كان هذا الادعاء كاذباً أو صادقاً، فهذا آخر ما يسأل عنه، بل انه لم يكن يفكر بالسؤال عنه. ولو صدف يوماً ما، أنه سأل عن ذلك، فإنما قد فعل كي لا يبدو ساذجاً، وليس لشيء آخر. فقد يضطر المرء أحياناً لفعل أشياء من أجل الآخرين، لأنهم لا يفهمون الأمور إلا بمزيد من التوضيح، وعلى الأغلب إنهم لا يفهموها حتى بعد ذلك، فلذا ليس ثمة داعٍ لإضاعة الوقت من أجل إقناع الآخرين في أمورٍ غير ذات جدوى.

لم يكن ساذجاً ولا مغفلاً في أي من المرات التي امتدت يده الكريمة بالجود والسخاء، بل كان يعلم جيداً أن منهم من يمارس الكذب عليه. عاش حياته يثق بالناس أجمعين لا يتهم أحداً منهم بالخيانة، ومع ذلك لم يُعد من احدٍ يوماً ما، بأنه غر أو ساذج. لعل سحر شخصيته

البسيطة، التي لا يُصدق أن مثلها يمكن أن تجتمع مع ثرائه الفاحش وكرمه الباذخ، هي السبب في ذلك. كان يبرر كذبهم عليه، بان العوز والحاجة يفقدان توازن الإنسان، ويجبرانه على فعل أمور غريبة مستهجنة لا تمت بصلة لسريرته، وهو عليه أن يعطيهم من ماله عسى أن يعينهم، ويعيد بعض التوازن لهم. كان يرى أن كرامة المرء وعزته شيءٌ نفيسٌ للغاية لا يقدر بثمن، لأنها جوهر إنسانيته وفيها تكمن قيمته، والبائع لهما مهما بالغ في طلب الثمن، فهو مغبون، لأنه يقايض شيئاً لا يقدر بثمن بدراهم معدودة مهما زادت فإنها لن تبرح بخسها. وعندما يفعل أحد ذلك مع رجل كريم النفس مثل الحاج، فانه يغريه على أن يهبه مزيداً من العطاء؛ فالكريم يدرك جيداً، انه يبرم صفقة لا أربح منها، ويعلم أيضاً أن لا يوجد على الأرض خاسر اكثر من سائله، فالأخير كالذي يعطي ما يملكه قاطبة ثمناً لقبر مزخرف بالنقوش كي يدفن فيه.

فوق ذلك كانت له فلسفة خاصة ربما تشي بشيء من حب الذات والطمع في الحصول على مزيد من الثراء، مع أن فيها لمسة من الإيمان القوي ونفحة من العرفان. كان يؤمن بقانون خاص به، فهو يعد نفسه قد عثر على كنز حقيقي عندما يطلب منه سائل ما معونة مادية، ويقول أن غيره لا يرى هذا الكنز لأنه ببساطة لا يؤمن به، ولذا كان يحدث نفسه عندما تراوده بالامتناع عن البذل بالقول: لا تفكر في هذا، فقد يسمعك الله ويعرف نواياك الشريرة؛ فيقل سخاؤه وكرمه معك، كما تحاول فعله الآن، ولو فعل ذلك فستكون أنت الخاسر الحقيقي وتصبح الفاشل

الأكبر، وليس هذا المسكين البائس الذي يقف أمامك، الذي قد يملك عذراً للسؤال، بينما أنت لا تملك عذراً للبخل والشح.

كان يتميز بمشية هادئة متزنة، وسيماً وسامة ريفية بما فيها من رجولة وصحة وقوة، وليس بهندام ابن المدينة؛ فشعره الأسود المكسر، بل المجعد قليلاً وعيناه العسليتان الناعستان، على ما فيهما من العذوبة والرقة الكثير، إلا أن الفتور يعلوها بما ينم عن كسل في التحديق كأنه يداعب من ينظر إليه كما يداعب النسيم الوجوه في الربيع. انفه الأفطس قليلاً وسط وجه يتراوح بين الاستدارة والاستطالة بوجنتين بارزتين وخدين خاسفين، كانت تحكي جميعها عن هيئة متواضعة. تعززه أثواب عادية لا يبذل جهداً حقيقياً في انتقائها، خصوصاً حين تجتمع مع قصر قامة نسبي ونحافة بدن لم تبارحه طيلة عمره. شارب باهت على وجهه الحنطي لم يحظَ بمنافسة حقيقية من ذقن أدمن على إهمال حلاقته وتأخير نوبتها لعدة أيام حتى عادت علامة فارقة. في الحقيقة أنه لم يكن في ذقنه سوى شعيرات متناثرة، لم يسع العقود التسعة التي عاشها أن تنسقها بانتظام، ولم تعرف استرسالاً رغم إهماله لها، وكان من العسير بمكان تمييز لونها بين السواد والبياض حتى مع إيغاله في العمر. هذا المظهر الخارجي لم يكن بوسعه أن يضفي عليه كل السمات والخصال الحميدة التي حظي بها، حتى صوته المجلجل في لحظات الغضب السريعة التي تمر به سرعان ما يخفت بانقضائها ويصبح هادئاً. ضحكته

لم يسمع لها رنة إلا نادراً، وظلت تحتفظ بخفوتها، كأنه لا يجرؤ على إبداء أكثر من الابتسامة.

ثروته الواسعة لم يرثها من أحد، بل صنعها بممارسة وظائف كثيرة، لا يصلح أي منها لجمع الأموال، إلا عمله الأخير الذي واظب عليه إلى أخريات أيامه مع حسن طالع صادفه في أكثر من مناسبة. تنقل بين مهن بسيطة من حارس في مدرسة خاصة تضم أبناء الذوات وكبار الشخصيات في البلد. كانت تصل له منهم أحياناً مكافئات ومن ذويهم في نوبات أخرى عطايا أكبر، إلا إن أياً منها لم يكن ليصنع أكثر من فرحة صغيرة لا تمتد لأكثر من صرفها على نفقات المعيشة اليومية على عائلة كبيرة صنعها بزواجه المبكر من بنت عمه القاطن في الريف والرافض لمغادرته كالآخرين. أنجب منها ثمانية أطفال ولما يبلغ بعد الخامسة والثلاثين، وحتى حين امتهن العمل في البناء، واضطراره للمشي على الأقدام لساعتين ذهاباً ومثلهما إياباً، يطوي فيهما عشرة من الكيلومترات يومياً، لم يحجبه ذلك عن صنع المزيد من الأطفال إلا بعد أصبح له دزينة كاملة منهم. ربما حين حصل على وظيفة جديدة ثابتة في مطبعة قريبة من منزله أصبح كسولاً، وضعفت رغبته أو قدرته على صنع المزيد من الأطفال. يبدو أن العمل يصنع الحياة وينتج آثاراً كثيرة أخرى غير متوقعة، أما الخمول والكسل فوظيفته صنع الخواء والعدم.

ثروته الكبيرة ويسار حاله لم ينشئا من هذه الأعمال البسيطة، بل من ممارسة هوايته المحببة في بيع وشراء الأراضي بشراكة عمل مع

"أكرم زيا"، الرجل الكلداني المسيحي الذي جمعتهما صفة الالتزام بالمواثيق والأمانة في العمل والتعامل. لم تحجزه هويته الدينية عن عقد هذه الشراكة المتينة والطيبة مع رفيقه حتى بعد انفضاضها بالحسنى، مع أنه كان مسلماً شيعياً متديناً ملتزماً بالفرائض والطقوس، حريصاً على إقامة المجالس الحسينية في داره، وينفق أموالاً كثيرة عليها، حتى أنه خصص لها جزءاً من مزرعة متمادية الأطراف يملكها، بمساحة ليست قليلة، بل أرضاً واسعة تفوق بحجمها ملعب كرة قدم، أوقفها حصراً لإقامة عروض مسرحية "التشابيه" التي تجسد أحداث واقعة الطف التاريخية بين جيش الحسين بن علي وجيش الأمويين في ختام الأيام العشرة المخصصة لتلك المراسيم الشعبية المشهورة في كثير من مدن العراق. وقد يبلغ ما ينفقه أحياناً في هذه المناسبة الخاصة ما كان يمكنه أن يشتري به وقتئذ قطعة أرض في موقع ممتاز، إلا أنه لم يكن يعر هذا اهتماماً، ولم يغره للتوقف عن هذا البذل، بل بالعكس من ذلك تماماً كانت الدعة تكتنف روحه ويسري في قلبه الاطمئنان لما يفعله، ويفصح عن ذلك حرصه على إتمام الطقوس بأفضل صيغة، والمبالغة في العناية برجل دين يستقدمه خصيصاً لتلك المناسبة، يقدم له ما يحبه هو من الطعام الطازج، سواء من دجاجٍ لا يأكله ولا يقدمه ما لم يشرف على ذبحه بنفسه مع خبز تنور بيتي. ويضيف لوجبة الطعام خضروات طازجة أتت للتو من المزرعة، وكان الأكثر تفضيلاً عنده "الخس" كما هي العادة عند البغداديين الذي كانوا يزرعونه في مزارع شاسعة وكثيرة

آنذاك، حتى أن اشهر منطقة في بغداد "الباب الشرقي" كانت تسمى بستان الخس.

أمانته في بيع وشراء العقارات أكسبته سمعة رائعة، وشراكته التي ابتدأت بخمسمائة دينار صارت أضعافاً مضاعفة. المثير ليس حجم ثروته، لكن كيف نشأت وتراكمت؟ أحيانًا, تكون الحياة بخيلة جداً، يقضي المرء أياماً وأسابيع بل لربما أشهراً وسنوات دون أن يشعر بمردود عمله، ثم فجأة ينهار ما كان يخاله جداراً أصماً حديدياً لا يقهر في لحظة واحدة، ويذوب مثل قطعة ثلج في صيف لاهب، وتتجلى أمام عينيه طريقاً رحبة واسعة، فيغدو من حال لا يملك فيها شيئاً، إلى حال يشعر معها، إنه بات يمتلك ما لا طاقة له على حيازته. وهذا حرفياً ما حصل للحاج "حامد المهدي" فعندما أعلنت الجمهورية في تموز 1958 والغي النظام الملكي، فرّ أغلب الأعيان من أصحاب الأملاك والأطيان إلى خارج البلد خشية فورة الغضب الشعبي المنفلت، وتحسباً من ملاحقة رجال الحكم الجديد لاتباع العهد السابق. شهرته بالأمانة والتزامه المثالي بالعهود، وكرمه وعزة نفسه رغم تواضع حاله وضيق يده، كانت قد بلغت مسامع أحد الأعيان الكبار ممن يقدر سمو الأخلاق، ويضع لها اعتباراً اكثر من حسابات الربح والخسارة المادية. هذا الملّاك الكبير قرر السفر مستعجلاً إلى أوروبا، فاستدعى الحاج على الفور، وسلّمه أوراق ملكية خمسة آلاف قطعة أرض يملكها وتخويلاً قانونياً كاملاً يعطيه صلاحية بيعها وتسلم أثمانها، وطلب منه أن ينجز ذلك بأسرع

وقت ممكن، ويرسل له مردود مبيعاته إلى مقره الجديد في العاصمة البريطانية لندن. لم يدخر الحاج (والحقيقة أنه لم يكن حاجاً آنذاك) وسعاً في تصفية أملاك الرجل بسرعة فائقة، وأرسل له الأثمان كاملة من غير نقص ولا استقطاع، فرد عليه الرجل الإحسان وبادله البر بأفضل ما يرجو من عرفان بالجميل، بمكافأته بمنحه الأراضي التي فشل في بيعها كافة ، بعد أن نجح في بيع القسم الأكبر من ممتلكاته.

الناس ليسوا سواء، ولكل منهم طباعه التي يبدو أنها تأتي من أصل خلقه أكثر منها بالتربية والتهذيب، فكريم الأصل يثبت كرم أصله ويدوم نقاء معدنه رغم تبدل الظروف المؤثرة فيه، ويبقى كريماً في اليسر والعسر، سمحاً في الرخاء والشدة، في حال الرضا والغضب، أما البخيل لئيم الطبع حتى وإن ظهر منه كرم وسماحة وسهولة، فإنه يظهر منه بقدر ما يقضي به حاجته ليس غير، فإذا تبدّلت الظّروف جاهر ببخله وسوء طبعه، وأظهر وجهه الحقيقي الكالح، ولا يستطيع مجاراة ما ظهر منه لوهلة، ما قد يحسب كرماً من الأخلاق، لأنها فوق طاقته واحتماله. وعندما يكرم الجواد رجلاً كريماً، فانه يسعى بألاّ يقلّ ردّه عمّا ناله منه، ولذا كان رد هذا الملاّك يتناسب وطبعه، وبمستوى قدره هو لا بمستوى أمانة حامد المهدي وحسب، إنما هنا ظهر فعل السماء حين تكافئ الصبور على طول الصبر على التحلي بالأخلاق والتدرع بالصبر رغم مرارته مع شظف العيش، وهذه هي اللحظة التي انهار فيها جبل الثلج وأغرق حياة حامد المهدي بماء الحياة وجعل أيامه وأيام عائلته خضراء

واسعة الرزق من غير أن يقدر أحد على فك شفرة هذا الوسع العجيب في الرزق غير المتناسب مع بساطة الرجل وتعامله السمح في سائر معاملاته التجارية، إلا بأن يرجعه لرغبة السماء وحدها، وليس لأي سبب آخر.

هذه المكافأة المجزية خلقت له ثروة ممتازة، بدأ منها تطوير نشاطه التجاري بمستوٍ متقدم، ترافقها سمعة حسنة في أوساط الملاك الكبار والتجار والشخصيات المعروفة من الوجهاء، وعزز سمعته تجنبه مشاكل السوق، وميله لحلها بأسلوب الترضية والتضحية بالخسارة من حسابه الخاص في مرات كثيرة على الدخول في نزاع مادي. ذكر مثال واحد يكفي لبيان طريقته الفريدة في فض النزاعات المادية التي غالباً ما تكون مستعصية الحل على غيره، فالمال غولٌ مرعب يلتهم القيم بلا رحمة، ويفترس الأخلاق ويسحق جمال الروح، وقلما نجا من وحشيته واضطرام هيجان الولع به أحد.

في يومٍ ما باع أرضاً لرجلٍ كان يريد أن يستثمرها، ولكن بعد ستة أشهر عاد له محتجاً عليه، بأنه قد تعرض للغش وأنه قد بيع أرضاً بائرة لا يرغب بها أحد.

- وماذا تريد الآن؟ سأله حامد المهدي بودٍ وهدوء.

- أريد أن أعيد الأرض واسترجع أموالي.

- حسناً لك ما تريد.

عاد لكل طرف ماله، في اليوم التالي جاء مشترٍ جديد، وباعها له الحاج حامد بسعر جيد وانتفع من ربحها، فسمع المستثمر المحبط بالصفقة الرابحة الجديدة، وجاء غاضباً يطلب أن يناله شيء من الأرباح، لأنه يشعر بغبن حين أعاد ما اشتراه مسبقاً. لم يجادله الحاج حامد، ولا أنبه، ولا وبخه على تقلب مواقفه، بل سأله بهدوء كم تريد؟ أعطاه ما أراد وسط ذهول الرجل نفسه ومن حضر المجلس وشهد الواقعة. وهكذا صار لديه زبائن كثر عشقوا نهجه في التعامل، وبالمقابل اغدقوا عليه فرصاً كثيرة لا تتوفر لغيره، وبهذه الفرص وبحكمته في التوفير والاستثمار بلغ من الثراء حداً يحسد عليه، ولم يشكو من تفيأ ظله من حاجة تصيبه، ولا من عوز أو إملاق أو فقر، ليس في حياته وحسب، بل حتى بعد أن غادرهم بلا إياب.

4

شغف أولاد حامد المهدي في طفولتهم بلعب كرة القدم مع أقرانهم في ساحة ترابية تعود ملكيتها لوالدهم، إلا أن ولعهم بلعب الكرة كان يُلْجَم قسراً حين يتحول الملعب إلى مسرح كبير في أيام عاشوراء، وطوعاً لأنهم كانوا يندفعون بشوق للمشاركة فيه. هذا المسرح كان يشبه سائر المسارح الأخرى في العالم بشيء واحد، وهو احتواؤه على ممثلين يؤدون الأدوار وجمهور من النظارة. وما عدا ذلك فإنه يختلف في كل شيء آخر عرفته المسارح، ولا يوجد له شبيه بينها. تعرض فيه مسرحية واحدة اسمها "التشابيه" وهي مرثية درامية، تعرضت للمنع بل للقمع من قبل السلطات الأمنية وأصبحت بنظرها عبارة عن موقف سياسي معارض، مع أن أغلب من يمارسها بل السواد الأعظم منهم لا شغل له بالسياسة. تبدأ المسرحية بدخول قافلة ممثلين يؤدون دور الإمام الحسين بن علي وعائلته، تعبيراً عن مسيرة الحسين من المدينة إلى كربلاء، ويتحرك معها الجمهور الذي سيشاهد هذه المسرحية إلى الموضع الذي ستقام فيه في ساحة العرض. يقف الجمهور على كامل محيط مكان التمثيل الواسع في الجزء الترابي المقتطع من مزرعة الحاج حامد، دون الاعتماد على خشبة مسرح، لأنه بالأصل لا توجد واحدة منها. ينقسم الممثلون أو المشاركون، لانهم ليسوا بممثلين حقيقيين، ولا حتى هواة تمثيل، إلى مجموعتين، واحدة تأخذ دور جيش الحسين تتمحور حول

خيام تنصب، يجلس فيها الأطفال ممن يؤدي دور السبايا. ويتميز هذا الفريق بالملابس والرايات الخضر والسود، وفي الضد منهم جيش ابن زياد بأسلحتهم وسياطهم وراياتهم وأزياءهم الملونة الصفر والحمر. المسرحية محاكاة لمأساة الأمام الحسين وما تبعها من فاجعة قتله والتمثيل بجثته وأجساد أنصاره وسبي عائلته، وتعرض بطابع تراجيدي حزين. يؤدي دور الحسين رجلٌ من سلالة الهاشميين، يحظى باحترام الناس في الحياة الواقعية، يخرج إلى الجمهور وهو يرتدي ملابس سود ويمتطي صهوة جواد أُستُعير من صاحب عربة نقل لقاء أجر زهيد. أما الممثلون فهم من عامة الناس، يدخلون المسرح وليس لهم من مدرب حقيقي، ويمكن لأي شخص أن يشارك في هذا العرض، حتى أن سجاد في احدى السنوات شارك فيها مؤدياً دور أحد أطفال الحسين منضماً لجوقة أطفال تحيط بالممثل الرئيس، وهو يُودع بالصراخ والعويل من الجمهور المحتشد قبل المنازلة الأخيرة التي سوف يلقى حتفه فيها. لم يعرف سجاد أبداً اسم ابن الحسين الذي أدى دوره، لأن عدد الأطفال الذين كانوا يؤدون هذا الدور يبلغ من الكثرة حداً يفوق حتى عدد شخوص القصة الحقيقية بأجمعهم.

كان الأطفال يشاركون بحماس لأنها لعبة ممتعة، يتفاخرون بينهم حين انقضائها بفعالية مساهماتهم في هذا الحدث الاستثنائي مثل أي مجموعة تحتفل بمهرجان كبير. كان بالحقيقة كرنفال حزن يجتمع له خلق كثير، ليس من سكان الحي فقط، بل حتى من الأحياء القريبة

المجاورة. كان الأهالي يحثون أولادهم على المساهمة في هذا العرض طلباً للثواب، ورجاءً منهم بأن البركة سوف تحل عليهم وعلى ذريتهم. وتشهد المسرحية سنوياً تفاعلاً عاطفياً هائجاً من الجمهور يحار المرء في وصفه، هل انه سذاجة مفرطة أم إنه مرآة تعكس ما تختزنه أرواحهم من البراءة والنقاء؟ وكيفما كان فالأمر يصبح هزلياً مضحكاً مسلياً في بعض الأحيان. في واحد من المشاهد المعروفة ينشق أحد قادة الجيش الأموي "الحر" لينضم لجيش الحسين، يتعاطف الناس معه كثيراً لموقفه الشجاع، يحيونه بفرح وكثير من صيحات التشجيع. يقاتل إلى جنب الحسين إلى أن يقتل وهو لم يزل يرتدي لباس الحرب بزي جيش السلطة. حين يسقط على الأرض قتيلاً، يبكون على مصرع البطل الاستثنائي بحرارة، ولكن حين تنتهي المسرحية بمقتل جميع اتباع الحسين، يجتاح الجمهور الغاضب ارض المسرح يطلبون الثأر من جيش القتلة، يرمونهم بالحجارة وينهالون عليهم بالركل والصفعات، ويفر الممثلون من هذا الغضب الجامح قبل أن تنالهم أيادي المؤمنين البسطاء التي تستهدف اللون الأحمر. معضلة "الحر" الذي نال قدراً عظيماً من التعاطف قبيل لحظات، أنه لا يجد وقتاً مناسباً لاستبدال ملابسه؛ فيتعرض بسببها للملاحقة، ويضطر للانضمام من جديد للجيش الأموي وسط انهيال اللعنات والحجارة ومقذوفات بدائية أخرى عليه. ورغم براءة هذا العرض المسرحي الشعبي، فأنه تعرض للمحاصرة من

قبل السلطات الأمنية، وتم حظره في أوائل السبعينيات تحت طائلة عقوبة قاسية بعد وصول البعثيين للحكم في تموز 1968.

اهتمام الحاج المهدي بإحياء الطقوس الحسينية تزامن مع التزامه بأداء الفرائض الدينية؛ فلا يذكر أحدٌ ولا هو نفسه متى بدأ بالمواظبة على الصلاة، حتى يخيل للمرء أحياناً، أنه قد ولد وهو يصلي. يؤديها قبل انبلاج نور الشمس وعندما تبلغ قمة السماء فتتوسط كبدها، وحين تأفل متوارية مخلفة الغسق. يصلي سعيداً راضياً مطمئناً، لا يريد أن يغادر وقفته ولا يتخلى عن ما هو فيه البتة، وقد خمدت جذوة مشاعره وسكنت غرائزه، واقفاً غالباً بثياب يعلوها الغبار وتفوح منها رائحة العرق في ساعة عمله أو عند إيابه منه، كأنه شجرة وارفة بأغصانها الممدودة، تعبث بها الرياح. لم يتذرع يوماً بعدم توفر الوقت أو الانشغال في أعماله عن تأدية صلواته، وطالما قال: إن الكد لأجل العيال جهاد، وأن الذين يعملون بنشاط يجدون وقتاً كافياً لكل شيء، ولن تؤخرهم صلواتهم عن أي منها، أما الكسالى الذين لا يفعلون شيئاً، يملؤون جعبتهم بالذرائع، ويحملون فوق رؤوسهم سلة مخزنة بالشكوى والتذمر من قصر اليوم وانقضاء الوقت سريعاً، فهم لا يملكون في أحشائهم سوى التعب والضجر والملل والضعف والخوار، وهم قبل غيرهم يعرفون، أنهم غير جديرين بأي شيء يسند لهم وأنهم أوهن من تحمل المسؤولية، يذعرون من أداء أي وظيفة ويخافون القيام بأي التزام، يشبهون الجبناء حين يولون أدبارهم في الحرب هرباً. كان يوصي المقربين منه وأولاده

بالقول: أن من يخشى خوض معركة الحياة، وترعبه عقباتها الكؤود كما تفزعه قرقعة السلاح؛ فلن يحظى أبداً ببهجة الانتصار ولذة الفوز. ولن يعرف طيلة عمره سوى الهزيمة والانكسار، لأنه حتى حين يقرر القتال ودخول المعترك فإنه سوف يبرز في الميدان برمحٍ مكسور لن يصطاد به جرذاً وبسيف قد علاه الصدأ لن يحز نحر عصفور.

إلا أنه لا ينبغي أن يُظن مع الأطناب كثيراً في الحديث عن تمسكه بواجباته الدينية وعشقه لإقامة الشعائر الحسينية، أنه كان مواظباً على الحضور في المساجد والحسينيات، أو كثير التردد عليها، لأن الحقيقة كانت خلاف ذلك تماماً، فالرجل لم يكن يذهب لها بالمرة. وعلى الرغم من توقيره وتبجيله لعلماء الدين لحد تقديس بعضهم، إلا أنه كان يكتنف على رأي سلبي بكثير من رجال الدين في تلك المساجد، وكان ينتقد تصرفاتهم كثيراً، بل وينعت بعضهم بأوصاف سيئة، ويحذر من بعض آخر. أرشده حدسه وحسه الفطري لحقيقتهم المزيفة وتسترهم بالدين. ومع أنه لم يكن يملك دليلاً مقنعاً، إلا أنه لم يخطأ في توقعاته ولا في تشخيصه لأحوالهم أغلب المرات، وتكفل الزمن تصديق مقالاته بهم. لم يعجبه فيهم تصديهم الغريب لمختلف مناحي الحياة، ودعواهم بأنهم يملكون مواهباً وتخصصات لا تعد ولا تحصى، وكأنما لا يوجد شيء في الكون لا يفهمون فيه. وما كان يثير غيضه وغضبه منهم أكثر من أي شيء آخر، هو حجم الأكاذيب التي يروجونها، والنفاق الذي يكتمونه في صدورهم، يملؤون الأسماع بالحديث عن الصدق مع

النفس ورفض الظلم، فيما يحملون على المعارضين للسلطة ويصفونهم بالمتمردين، الذين يغررون بالشباب لإثارة الفوضى. لم يكن يطيق عبثهم بالمقدسات، إلا أن ما يزيده حنقه عليهم، أنهم لا يخافون عقاباً ولا مساءلة أو تكذيباً من مستمعيهم ممن ألف أن يتقبل بخنوع وذل أو أن يصدق ما يقولونه، فقط لأنهم يلبسون زياً مختلفاً عنهم. ولطالما أثار انفعاله سعيهم لمصالحهم الخاصة، وطلبهم الثراء الفاحش بلا تعب يذكر ولا جهد يبذل. كان يختصر ذمه لهم بجملة واحدة حين يقول: يكسبون معاشهم ومعاش عيالهم بكلمتين، بينما غيرهم يسبح جسمه طوال النهار في عرقه، ولا ينال قوت يومه.

الطقوس الدينية وما يرافقها من أجواء احتفالية، ورغم كمية الحزن والاسى التي فيها، كانت تبهر سجاد، وتستحوذ على اهتمامه بشكل غريب. فبينما كان أقرانه كعادة الأطفال حين يلقي الخطيب فيها موعظته، يكثرون من الهمس والمزاح، وهم يتحلقون في آخر سرادق رحب ينصب في الحديقة الأمامية لمنزل الحاج حامد، كان هو يصغي باهتمام ويطالبهم بالسكوت، ويصل به الحال أحياناً إلى توبيخهم. هذه المجالس حفرت في شخصيته أخاديد عميقة استقرت فيها خصال، لن يقوى زمن شاق صعب مرهق، ولا عقبات كؤود سوف تعترض مسيرته في الحياة على طمرها. البكاء، بل النحيب الذي كان يصدر من الرجال في تلك المجالس صيرت العاطفة فيه سمة فارقة، وباتت دموعه الحارة

تنسكب لأدنى المواقف، ولكن ما استقر مضافاً لها هو خصلة الكرم، لما يشهده من طوفان العطاء وحسن الضيافة في تلك المجالس.

دارهم الفسيحة بحديقتيها الخلفية والأمامية والباحة الداخلية الواسعة وصالات الضيوف المتداخلة تصبح ملكاً مشاعاً للجميع في تلك الأيام العشرة، حتى الدخول إلى المطبخ حيث تعد النساء الطعام فيه، يصبح بلا استئذان، ولا يُعْرَف من فيه، هل هم أهل الدار أم آخرون جاءوا للمساعدة أو بدافع الفضول؟ يصبح الموضوع محيراً ومربكاً فعلاً، ففي أحد الأيام ولكثرة الأطفال المزدحمين في المطبخ وبعد أن تحولوا إلى عائق أمام الطهي وإعداد الطعام، طلبت احدى النساء من طفلٍ كبير إخراج جميع الأطفال الغرباء. وعدّ سجاد غريباً، ولذا طلب منه كالآخرين الخروج، ولم يستطع الإفلات من قرار الاستبعاد إلا بعد شهادة موثقة من احدى النساء، على أنه من أهل البيت.

الضيافة الحسنة والكرم السخي عمل روتيني لا يقف ولا ينتهي في الأيام العشرة من محرم، بل يشهده دار الحاج كل مساء من بعد غياب الشفق. يجتمع زوار كثيرون يُقدم لهم الشاي والسكائر وأنواع الفواكه، وقد يحظى آخرون بالعشاء إن فاتهم تناوله في مساكنهم أو جاءوا مباشرة من أعمالهم أو لأي سبب آخر. لم يكن الحضور اليومي يقل عن عشرين رجلاً على الأقل، إذ لا محل للنساء في تلك المجالس أبداً. يظلون يتسامرون إلى ما قبل منتصف الليل بساعة تقريباً، يتبادلون الاحاديث العامة وسائر ما يهم الرجال والقصص والطرائف. بعض من الحضور

كان يملك شخصية محترمة للغاية، ولا يتكلم إلا بالصدق، ولا يذكر إلا الحقائق، ويأبى معاشرة النفاق، ويستهجن الرضوخ للظلم، إلا إن هذه الصفات الحسنة لسوء الحظ لم يكن يقام لها اعتبار عند حكومة ذاك الزمان الذي انقضى لغير رجعة. كثيرون من هؤلاء الصادقين الشجعان اضطروا إلى تقديم أولادهم وأحبائهم إلى السجون والمعتقلات قرباناً لتلك الخصال الحسنة، ليلقوا حتوفهم فيها، أو يساقون إلى هاوية لا قرار لها، من هوى فيها لن يجد له أحدٌ من أثر، ولا حتى بقايا من رفات تدفن رمزاً لتذرف عليها الدموع حين تحتبس الصدور. ومع هذا فإن الديوان لم يكن بهذه المثالية الجميلة دائماً، فقد كان يحضر آخرون لهذا المجلس اليومي يروون حكايات ملفقة للعبرة حيناً وللتسلية حيناً آخر، ولكنهم ربما لطيب نواياهم وصفاء سرائرهم كانوا يعترفون بكمية الكذب الذي تحتويه قصصهم؛ حين يبادرهم أحد بالسؤال وهل حصل هذا حقيقة؟.

الجزء الأسوأ في الحضور كان من أشخاص مفعمين بالحقارة والأنانية والانتهازية والتملق، وأحسن من يعبر عنهم، ويصلح إنموذجاً متكاملاً لهم، هو الشاعر الشعبي طارق الفيصلي، دائب الحضور لا يخلو يوم من تواجده بسمرة وجهه الداكنة، التي لم تكن من لفح الشمس، إنما قد ولد بها وظلت له رفيقة دائمة، مع حرصه الواضح بصحته والاهتمام الزائد بنظافة مظهره، ويعرب عن ذلك عنايته الفائقة بترتيب ملابسه الفاخرة ونسق ألوانها المعتدلة ومظهره الجذاب، ورائحة المسك

التي تفوح منه. كان يختار دائماً مقعداً بارزاً في المجلس يبدو فيه أضخم مما هو عليه في الواقع، مع انه كان طويل القامة متين البنية ذا وجه حاد التقاطيع، يتبدى فيه خداه المنتفخان، أنفه الحاد، وعيناه الجاحظتان قليلاً الناطقتان بشيء من الحدة وكثير من المكر، والشر المخفي وراء ابتسامته الخبيثة وهو يقلب شفتيه بفكيه العريضين. كان أكثر الناس أبداءً للحماس وإظهاراً للورع في المناسبات الدينية، ينظم الأهازيج ويحمس الجماهير، ويتصنع بكاءً حاراً حين يبدأ الخطيب في قراءة أبيات حزينة، وحينما ينتهى من تلاوتها، يكشف طارق الفيصلي بعيد لحظات عن تكشيرة عريضة، وينغمس في ضحك ومزاح مع اقرب مجاور له من الجلوس، حتى لو كان يلتقيه لأول مرة. هو الأكثر شراهة ونهماً عند حضور الطعام، كأنه قادم للتو من أرض مجاعة لم يجد أهلها زاداً حتى من الحشرات والهوام، ليسدوا بها رمقهم ويقيموا أودهم. أفعاله الدنيئة تشعر المرء بالغثيان حين يستذكرها، وتنتابه رغبة حقيقية في التقيؤ حين يراها. لأنه سرعان ما تعاون مع أجهزة الأمن في سنوات لاحقة، حين أصبح سوق الدين بائراً، وصار التذلل لحزب البعث رائجاً، وصارت هوايته المفضلة التبليغ عن أي شخص ينتقد السلطة مهما كان قريباً له ومتفضلاً عليه. ومع أن تصرفاته المستهجنة كانت فائضة في غزارتها، لكنه كان بارعاً في تغليفها بكثير من الحيل، كما كلامه المعسول.

كان من ضمن ترتيبات الضيافة اليومية تقديم طاس كبيرة من اللبن المدخن، المتميز بطعمه الحامض والمنعش، تكفي لأن يشرب منها عدد غفير. اثنتان منها كانت تكفي تقريباً جميع الحضور، لو ارتشف كل واحد منهم ما يكفيه بحسب القدر المتعارف، مهما استبد به العطش، إنما "طارق الفيصلي" كان يحرص على الانفراد بها وحده بطريقة تنفر الحضور. فما أن تصل الطاس له وغالباً يبدأ الطواف بها من عنده، لأنه يتعمد الجلوس في صدر الديوان، يضعها على منضدة خشبية ثقيلة مصنوعة من خشب الصاج، ينحي الملعقة الخشبية جانباً ويبدأ باستخدام إصبعه الأوسط بدعوى خلط اللبن، وهو يردد مقولة قديمة: اشربوا بأيديكم، فإنها من خير أوانيكم، مثيراً الاشمئزاز في نفوس الحاضرين، فتعاف نفوسهم اللبن، ويستحوذ عليه وحده. تجهر العيون المحدقة به بالتقزز والازدراء، بينما هو يخرس ضحكة رنانة تجلجل فرحاً في أحشائه ابتهاجاً بالظفر، يسفر عن ملامحها عقد حاجبيه الكثيفين وابتسامته الصفراء.

ومن هذا المجلس وهذه الواقعة تحديداً، اكتسب سجاد كره المتنمرين والمنافقين، وتعمد ازدراءهم، وصار يتحاشى تقديم الخدمة لهم حين يحلون ضيوفاً في ديوان والده اليومي، بخلاف رغبة أبيه وإصراره على خدمة الجميع وضيافتهم على قدم المساواة. ومع أنه قد ورث الكثير من سمات والده، إلا أنه لم يفلح في اكتناز بعضها، كإتقان المزج بين ضيافة الكل واستنكار النفاق، كما يفعل والده. عجزه عن

ذلك، دفعه للعناية المضاعفة بالبسطاء من الحضور ممن لا حيلة لهم، أو من كان يظنهم من الصادقين في المساواة بين القول والفعل. تصرفه هذا أقحمه في عدة مواقف كان عرضة فيها لتوبيخ والده ونهره، إلا أن ذلك لم يكبحه عن عادته هذه طيلة عمره. خصلة أخرى حملها على خلاف والده، فلم تنحصر علاقته بالدين بالمجالس الحسينية، ولا بالاحاديث التي تدور عنه في مضيفهم اليومي، بل كان يكثر التردد على مسجد الحي، يذهب له راجلاً رفقة زملاء الدراسة في النهار، إذ إن والده كان يحظر عليهم الخروج ليلاً، حتى لا يتأخرون عن خدمة رواد المجلس اليومي في مضيفهم المفتوح. ارتياده المتواصل للمسجد القريب خلق له شبكة علاقات من نوع خاص مع أصدقاء بنفس توجهاته الدينية، ووفر له فرصة شهد منها وقائع كثيرة جرت في تلك المساجد، أغرب ما رآه تهاوي إمام المسجد أثناء الصلاة في المحراب على الأرض، بدا كما لو أن الرجل قد اشتد تعبه وزاد إرهاقه؛ فنزل إلى الأرض ليستريح قليلاً أو ينام. خرجت بضعة أنفاس منه بسلاسة، ثم أطلق زفيراً لم يدرك المحيطون معه أن الرجل قد سقط ميتاً بلا حراك. لم يصدمه الموت بل بدا له سلساً خالياً من الصور الفظيعة التي يسمعها عنه، ولا يستوجب الحزن والبكاء.

5

لم تكن شؤون الدين وحدها التي تستهويه، بل كانت الرسوم المتحركة تلوي عنقه هي الأخرى، كما تفعل به صور أبطال أفلام المغامرات و"الكاوبوي" الأمريكية، وهي تتقلب في تلفاز المقهى الأسود والأبيض، تخلب نظره وتأسر عقله. ينظر إلى التلفاز المتربع على صندوق خشبي عالٍ في اقصى المقهى الوحيد بعيون متلصصة، لأن والده كما كان يحظر على أبنائه ارتياد المقهى، كان قد منع دخول هذا الجهاز لبيته، إلا بعد وقت طويل للغاية، حينما أصبح ملوناً ودخل حتى في بيوت فقراء الحي، وبعد أن زادت الضغوط عليه من كل صوب وحدب سواء من داخل البيت وخارجه. رضخ لاقتحامه منزله مكرهاً ولكن لم يعقد معه صداقة ولا أحبه يوماً، إنما صلة ابنه به سبقت ولوجه دارهم، فقد كان يتسلل خلسة للمقهى في النهار، ويدفع قطعة دائرية معدنية متعرجة بأسنان منتظمة مزينة بأشجار النخيل نقش عليها خمسة فلوس، يقايضها بقطعة واحدة من الحلوى وفرجة على أفلام الرسوم والحركة. لم يعكر فرجته شيء، وظل يهوى إن لم يعشق التسلل للمقهى، إلّا في نهارٍ مميز. دخل المقهى وبدلاً من أن يجد برنامجه الأثير، رأى ذعراً وذهولاً يسودان وجوه أغلب رواد المقهى، وصمت ثقيل ينوء بحمله عليهم وصوت جهوري صاخب ينبعث من التلفاز، يرافق عرضاً لمشهد مباشر من ساحة التحرير في بغداد لرقاب تتدلى من حبال

المشانق، تحيطها جموع تهتف بالموت للجواسيس والخونة. لهث خياله في إعياء، لم يفهم شيئاً، واندك تحت وطأة المشهد، وهو عاكف على النزر اليسير الذي استطاعت حواسه أن تلتقطه. لم يبلغ دلالة المشهد ولا خبر مغزاه، ولكن ببراءة الطفولة استولى عليه شعور طاغ، بأن ما رآه أمر سمج شائن، فداخله انقباض شديد تملك جوانحه، وتجمد قلبه ولم يعد يخفق إلا بالخوف. صارت تمر أمام عينيه حتى وهو يغمضهما، صورة مشوشة لرقاب طويلة مدلاة كأنما قد غطست في قعر بحر من الضباب أو غشاها دخان، كأنما يأبى تصديق وقبول ما قد عاينه. صورة غائمة ظلت تخطف أمام ناظريه كلما لمح بعينيه تلفازاً في مقهى، ولم تفارقه حتى بعد أن عرف القصة بتمامها بعدئذ، بعد أنغفل عنها الكثير أو تجاهلها.

كان ينسل للمقهى عابراً الجدول الصغير الذي يخترق الحي عند المطحنة القديمة المنتصبة وسط الحي، يحيط بها خلاء مترامي الأبعاد كأنما حدوده اللانهاية، تتحرك قطعان الماشية والبهائم في ممرات ترابية تتخلل الزرع المنتشر، يسير وراءها قوم من أعمار وأجناس شتى علاهم الغبار وأعياهم التعب والإرهاق من لفح حرارة الشمس وتصاعد الأغبرة، ويترامى نباح الكلاب بين الحين والآخر من زوايا خيمة الصمت والسكون التي تخيم على المشهد الأخضر الواسع. كانت الطاحونة هي المظهر القديم، بل الأقدم من عموم الأشياء في الحي الذي ازداد بتوالي الأيام تراص بيوته وتكدسها، وباتت بعد حين الرمز المميز

القائم وحيداً للحياة السالفة الجميلة البسيطة، بعد أن غابت بيوت الطين والصرائف من المشهد نهائياً، وتلاشت مزارع الخس الخضراء مترامية الأطراف، التي كانت حدوداً فاصلة بين الأحياء المتجاورة. وظلت تقف المطحنة شاهداً محذراً ومنبهاً على زراعة تسير بسعيٍ حثيث وخطى متسارعة نحو الضعف والوهن، ثم الاندثار. ظهور الطاحونة في الحي هو الذي أدى إلى استقرار الناس فيه من قبل، وكانت هي نواة تكاثر مساكنهم والتفافهم حولها، ونقطة شروع قصة المدنية في الحي ببنائها الضخم المطل على جانب الجدول المتسع قليلاً عندها. ارتبطت بحياة الناس اليومية، يوم كان القمح والطحين هما قوت المنزل اليومي. يومئذ كن ربات المنازل يؤمنَّ بأنفسهن قوت عوائلهن من خبز شهي حار، يتلهف الكبار لخروجه من التنانير الطينية، ويتحلق حولهن الصغار ليشموا عطر دخانها الزكي. دخانٌ أبيض يرتقي إلى السماء مطاولاً أبراج معامل الطابوق الشاهقة المطلة من أفق ناء في بحر سراب لم يبلغه أحد.

كانت المحل الـذي يلتقي عنده الناس في الأيام المشمسة، وما أكثرها في بلد مثل العراق، وتحولت بوجودها إلى متنفسٍ، يبعث في قاصدي المكان شعوراً جماعياً بالفرح. ولا يندر أن تسمع أحدهم يجلس وسط فنائها الواسع ينشد موالاً شعبياً حزيناً، وهل ينشد العراقيون إلا الحزن؟ أو يغني أغنية تفيض معها مشاعر مغموسة بعبق زمن جميل وحلاوة أيام وليال مضت إلى حيث لا رجعة. لم تخل ساحة المطحنة من مواعيد سرية لقصص حب وغرام، بدأ لقاؤها الأول فيها، وأضفت

دمدمة الرحى بصخبها حجاباً يستر همس العاشقين عن آذان النمامين والوشاة، إلا أن "سجاد" كان بعيداً أشد البعد عن أجواء الفرح الزاهية هذه، فحبه السري لبنت الجيران ظل مقيماً للأبد في صدره، ويوم أراد أن يبلغ عتبة لسانه، فان أقصى ما تجرأ على اقتحامه من قيود الخجل والحياء، هو قرار استدعى فيه مخزون شجاعته بأن يقول لها صباح الخير، لكنها خرجت من فيه كلمة جافة تعتمر رداءً خشناً، ليبادرها عوضاً عن رقة الصباح ونعومته بلغة خشنة تليق بجدية الكهول: السلام عليكم. لم يرتفع لها طرفه، وحجب عنها ابتسامة خجل مرتبكة، وحمرة غطت سائر وجهه تضاهي شفاه عروس في ليلة زفافها.

أوقعه الخجل في مواقفٍ محرجة شتى في حياته، منها حيرته واضطرابه، يوم طلب منه معلم الصف أن يلقي على مسامع الطلاب جدول الضرب. كان يتباهى قبلها فخوراً بشيء ليس بقليل من الاختيال والغرور على زملاء صفه الدراسي، ويزعم انه اكثر منهم جداً واجتهاداً، لكنه حين وقف والسبورة خلفه ومقاعد التلاميذ أمامه، امتقع لونه وانعقد لسانه وبدأت شفاهه تتحرك بسرعة ولكن بلا صوت ولا معنى يفهم. انحبست الأرقام في حنجرته، تمتنع عن بلوغ طرف لسانه رغم أن مخه كاد يتلاشى من شدة ما اعتصره لاستخراج المعلومة الغائبة، التي استحالت عرقاً غزيراً تصبب من سائر جسده. اختفت السمرة الخفيفة من سيماء وجهه، وحل محلها دم محتقن في أوردة وجهه، تكاد تنفجر لكثرة ما انحبس من الدماء فيها. ازداد ارتباكه وهو يسمع همساً شامتاً

خافتاً يتجاوب مع ضحكات مكتومة ملتوية بين رفاق صفه تزاحمت أمام ناظريه تحشو أذناه وتحكي فضيحته، فزادت من اضطرابه. عشرات الاحتمالات تلاطمت في رأسه مثل طوفان أغرقه، كما فعل العرق الذي تصبب من جبهته، بل من سائر مسامات جلده وابتلت به ثيابه رغم برودة الطقس. لم ينجه يومذاك إلا حلم المعلم وحكمته وصبره عليه، عندما قرر أن يستمع لكل طالب في الصف يردد جدول الضرب، قبل أن يعود له ثانية ويعينه على عبور الاختبار ناجحاً.

من الصحيح القول، أنه لم يكن ذا ذكاء حاد، وأيضاً لم يتفوق على أقرانه في علامات الدروس، بل لم يحصل ذلك منه إلا في القليل النادر من المرات، وفي مادة واحدة لا غير ولوهلة قصيرة، إذ لا يلبث إلا قليلاً في درجة التفوق هذه لربما لشهر واحد لا أكثر، ثم سرعان ما يعود إلى وضعه الطبيعي في مستوى وسطي بين رفاق صفه، خلافاً لشقيقه "مجتبى" المنهمك بدروسه إلى حد الهوس والإدمان. إلا أنه كان متميزاً بنحو فريد في أمرٍ آخر، وهو المواظبة على الالتزام بالحضور اليومي، فهو التلميذ الوحيد الذي لم يغب عن المدرسة ولا حتى ليوم واحد، بل ولا لحصة دراسية طيلة مكوثه في تلك المدرسة لستة أعوام، قضاها في المرحلة الابتدائية وأخرى مثلها في الثانوية. ولولا هوسه بالمشاركة في المناسبات الدينية وخصوصاً زيارة كربلاء في أربعينية الحسين؛ لما غاب أبداً سوى في يوم واحد ليس غير، إن صادف وقوعه في غير أيام تعطيل الدراسة أو في غير عطلة نهاية الأسبوع. هو وشقيقه كانا يصلان

يومياً إلى المدرسة مبكراً حتى قبل حضور المعلمين، ويقدمان العون لحارس المدرسة في فتح أبوابها عند أول الصباح، مما شفع لهما عند المعلم المشرف على الصف أستاذ حسين معلم الحساب المتدين مثلهما، والمحب لالتزامهما العلمي والديني، فكان يتطوع لمكافأتهما بمحو اسميهما من سجل الغيابات في اليوم التالي لزيارة الأربعين. كونه ليس ذكياً مثل شقيقه، فهذا لا يعني أنه لم يكن بارعاً في بعض الأوقات، بل كان أحياناً يبدو شاطراً إلى حدٍ يحسده أقرانه على تفوقه وبراعته.

في يوم التقى ورفاقه مصادفة معلماً سابقاً لهم، وهم في الطريق إلى مسجد الحي، وعقد الأستاذ لهم اختباراً سريعاً على ناصية الشارع. طلب منهم أن يكتبوا كلمة "قسطنطينية"، يا لها من كلمة صعبة، وكيف لتلميذ في السنة الثانية ابتدائي أن يتذكر تزاحم حروفها المتشابهة وتدافعها حتى يخال سامعها أنها كومة أصوات عشوائية، لا نظام يجمعها، ولا ترتيب يحسن التنسيق بين تنافر حروفها. ولكنه فاجأ الجمع الصغير حين خط بأصبعه الناعم حروفها برشاقة وسرعة على تراب الشارع، وأفواه رفاقه فاغرة، وعيونهم لا تكف عن التنقل في مثلث رأسه الأول على الأرض عند تلك الكلمة الصعبة ورأسيه الآخرين، واحد عند وجهه المنتفخ من الفرح، والآخر عند المعلم الشاب وهو يكيل عبارات الثناء والمديح له. ينظر رفاقه له بعجب، بل يبحلقون والدهشة تملأ وجوههم، يتساءلون في سرٍ تفضحه عيونهم الصغيرة المنبهرة هل حقاً كتبها صحيحة؟ أوه،

يا له من إنجاز عجيب! ومن أين له هذا؟. لم تكن هذه المرة الوحيدة التي أثبت تفوقه فيها، ففي مرة جرت مسابقة مدرسية بين فرق جمعت من صفوف المدرسة، ووقع الاختيار عليه ليكون قائداً لمجموعته. كانت مباراة صعبة للغاية، لأن الفريق المنافس كان يضم في صفوفه أغلب المتفوقين في الصف، ولكنه كشف عن ذكاء في القيادة حين استخدم تكتيكاً بارعاً اخترعه لحظتها. كان يتأنى طويلاً في الرد على الأسئلة ويوصي أصحابه بالتفكير الملي قبل الإجابة، بينما كانت الثقة العالية بالنفس لدى الفريق المنافس والإحساس العالي بالتفوق تدفعهم للتهور والوقوع في أخطاءٍ ساذجة سببها الاستعجال وحب الظهور. في النهاية انتصر فريقه، رغم إنه في أول انعقاد المباراة لو عقد رهان، لما راهن عليه إلا من راهن على فوز السلحفاة في سباقها الشهير مع الأرنب. لقد انتصرت السلحفاة ثانية على الأرنب الذي لم يصح من غروره إلا حين اعلن فوز السلحفاة، ولكن الفرحة لم تدم طويلاً؛ إذ بدأ سجاد بابتهاج غمر روحه يقود جوق فريقه للقفز احتفالاً في قاعة الدرس على المقاعد الخشبية بعد انتهاء المسابقة. إلا أن الخسارة غير المحتسبة أوجعت فريق الأرانب كثيراً، وهي وحدها كانت مؤلمة موجعة فكيف اذا اجتمعت مع هذا الاستفزاز؟

تحول وجع الهزيمة على الفور إلى هجوم بالأيدي قاده طالب مترف بدين، يكنى أبو لغود، مكور الجبهة والعينين والذقن، بوجه مليء يكاد ينفجر من الدم بخدوده السمينة وعنق غليظة وكرش ضخمة لا تتناسب

وعمره. وأطبق على رقبة سجاد، وحشره داخل الكرسي الخشبي. جسده النحيف لم يكن يتحمل كل هذا الضغط، واندثر تماماً تحت جسد مهاجمه المترف، وصار يلوح بيديه كيفما شاء يبغي الخلاص بأي طريقة. وفي لحظة يأس وجه ضربة عشوائية وقعت لسوء حظه أو لحسنه على عين خصمه الذي نهض عنه صارخاً، متألماً، باكياً خسارته الثانية، وفي الوقت نفسه شاكياً إلى معاون المدير هزيمته، بحجة عينه التي تورمت على الفور. صدم المعاون بمنظر عين الطالب المتورمة، ولم تنفع تبريرات سجاد وحججه، ولا ادعاؤه بأنه كان ضحية هجوم غادر، وأنه كان يدافع عن نفسه. يومها كان المعلمون يصيرون أشخاصاً مرعبين حين يستبد بهم الغضب، عندما يصممون على معاقبة طالب ما. كانوا يستخدمون خرطوم المياه لمعاقبة التلاميذ المشاكسين، وهذا ما انتهى له حاله، وآل إليه تفوقه في تلك المنافسة. تبدد فرح الانتصار واستحال إلى دموع ألم وصرخات توجع واستغاثة يائسة بلا مغيث، وغضبٌ عرمرم يغلي في صدره على كل المغرورين الفاشلين الذين ينتقمون بخسة ونذالة حين يلحقهم الخزي والعار في المبارزة باضطهاد منافسيهم. لن تكون هذه المرة الأخيرة التي يتلقى بها عذاباً لشيء لم يفعله، ولكنه سيبقى دائماً لا يقبل تجرع الظلم، ولا يقبل الرضوخ والاستكانة على الرغم من هزال جسده ووهن بدنه.

كان شغوفاً بأخبار الرياضة وخصوصاً كرة القدم لعبته الأثيرة، ولذا ما أن بدأ يحسن القراءة حتى عقد مع شقيقه "مجتبى" صفقة استمرت

لعدة سنوات، كانت تقضي بجمع المبلغ الذي يصرف لهم يومياً من قبل عائلتهم. فقد كان يتقاضى خمسة عشر فلساً بينما حصة أخيه عشرين فلساً، ويخصصان حصته لشراء الصحيفة الرياضية يومياً، ويشتريان بحصة شقيقه سندويشاً واحداً يتقاسمانه فيما بينهم. ومع تقدم عمريهما وتسلقهما المراحل الدراسية بنجاح، تطور الأمر إلى شراء صحيفة عامة لا تخلو بالتأكيد من أخبار الرياضة. وبدأ يقرأ الأخبار السياسية فضولاً في أول الأمر، ولكنه وجد نفسه يلج في هذا العالم رويداً رويداً. تطور شراء الصحيفة ليصبح معبراً عن موقف سياسي، إذ بدأ يستهجن أفعال حزب السلطة، فصار يتعمد شراء صحف أحزاب المعارضة، مثل جريدة "التآخي" صحيفة المعارضة الكردية (صار اسمها بعد ذلك العراق، عندما استولت عليها السلطة) أو جريدة "طريق الشعب" صحيفة الحزب الشيوعي أو جريدة "الجمهورية" وهي صحيفة قومية قديمة نشأت مع ظهور الحكم الجمهوري في العراق، وان كانت تميل لوجهة النظر الرسمية، ولكن ليس يلون فاقع تماماً في نظرهما على الأقل. لم يكن يشتري جريدة الثورة صحيفة حزب البعث الحاكم، إلا بعد أن يفقد آخر أمل بالحصول على نسخة من الصحف الثلاث الأخريات.

تطور الأمر مع تقدمه بالسن إلى شراء المجلات، بل وإلى عقد صداقة وفرت له سبل جديدة للاطلاع على خفايا عالم السياسة. صداقته مع نادر صاحب مكتبة تحمل اسم الحي الذي يقطن فيه، الذي كان يبيع الصحف بوجه مبتسم دائماً، وصوت دافئ قوي، يعطي زبائنه مع كل

جريدة يقتنونها بشرى بهزيمة السلطة وقمعها الأرعن، ويمنحهم جرعة ثقة على مواصلة التحدي. لم يكن الأستاذ عبد الله بائع صحف عادياً، بل كان صاحب فكر مثل كثير من أصحاب المكتبات آنذاك. ولم يكن ذا نظريات سياسية يوزع الكلمات ويتشدق بالشعارات، بل كان صاحب مواقف إنسانية مبدئية شجاعة. تعرض لتنكيل شديد وقمع رهيب من السلطة، وفقد أفراداً من عائلته، منهم بعض أولاده، توزعوا بين سجون سرية ومقابر جماعية ظلت لعقود مجهولة، مما اضطره لمغادرة البلد مهاجراً إلى بلاد الغربة. إلا إنه لم يفقد روح التضامن، سواء كان في وطنه أو في بلاد الغربة. زار بيت الحاج حين خرج ابنه من السجن تضامناً معه رغم التحذيرات والنصائح من المحبين والمقربين خشية العواقب الأمنية، واجتمع مع السجين الحر ذاته ثانية في المهجر أو بالأحرى المنفى البعيد، ليعيدا معاً ذكرى بواكير وعي صنعت كل هذه الفوضى في حياتيهما. رآه كما هو لم يزل يواصل نضاله بالكلمات، لأنه كان يرى في السكوت على جرائم السلطة حتى في المنفى مشاركة لهم. لم يكن يراهن على مجرد الكلام بل كان يستهدف ضمائر الناس وعقولهم، وينتظر صحوتها، ويرى بفعله هذا نصرة لدماء الضحايا وتضامناً مع آلام سجناء الفكر والرأي.

فشل الحاج حامد المهدي في تعلم القراءة والكتابة، وحاجته الماسة لها في عمله، انعكست اهتماماً بالغاً برغبته بحصول أولاده على تعليم جيد، عكسه دأبه في حثهم على الجد والاجتهاد. ميوله كما ميول

أبنائه الدينية، دفعته إلى زجهم في مدرسة صيفية تقع على الجانب الآخر من نهر دجلة، الذي يقسم العاصمة بغداد إلى جانبين أو "صوبين" كما يحلو لأهلها تسميته. يذهبون لتلك المدرسة، وهم يركبون باصاً خشبياً في الصباح، خاله سجاد حينما رآه أول مرة خزانة الملابس الخشبية ذات الأبواب الأربعة التي تحجب حائطاً كاملاً في غرفة أمه الواسعة، وإن كان بشبابيك. وسأل نفسه بسذاجة الأطفال كيف خرجت من الباب الضيق؟ ضحك، ولشد ما ضحك كلت عروق عنقه ووجهه، وحين توقف عن ضحكه لم يتوقف عن الغط في استغراب بدهشة الطفل وهو يرتقي درجاته لأول مرة، غمرته نشوة عجيبة مثل التي أبدعها بدر شاكر السياب حين قال: "ونشوة وحشية تعانق السماء، كنشوة الطفل اذا خاف من القمر". مشهد فريد وأسئلة طفولية لا تجد جواباً وصور تتراقص في مخيلته، اتحدت مع الذاكرة لتبدع وجوداً رسم وجه ماضٍ غريب وبريء.

لم تكن هنالك من سيارة أبداً قد سقطت عليها عيناه تسير بمحرك مثل تلك، ولأول مرة يغادر الحي الذي يسكن فيه، ليس سيراً على الأقدام مثل كل مرة، بل ويعبر نهراً واسعاً لا يشبه الساقية الصغيرة التي تجري أمام دارهم. وردت في خاطره في الحال مشهد الأولاد الكبار يعدون مسرعين ثم يعبرون الساقية بقفزة واحدة، ويقفون على الضفة الأخرى يرسلون له ولأقرانه نظرات سخرية وكلمات استهزاء. متى يكبر ويصبح مثلهم ويتوقفون عن الضحك عليه، لأنه يخشى الوثب من فوقه مثلهم؟ سؤال طالما وجد له حيزاً في مخيلته، أما الآن فإنهم لو رأوا هذا

النهر العريض كبحر واسع ممتد بلا أطراف فلن يضحك عليه احد، لأنه حتى الرجال من أصدقاء أبيه لن يغامروا بالنط من فوقه. لن يعبر هذا البحر أحد إلا عبر سيارة، كما يفعل الآن. شعر بالنشوة لركوب الباص، ولردم الهوة بينه وبين المتنمرين.

يقف الباص على ضفة النهر، ثم يرتقي الجسر الطويل، يسمع بين حين وآخر حمحمة خيول تجر عربات، وأصوات حوافرها تضرب الأسفلت الأسود في رحلة الزائرين والعابرين إلى مدينة الكاظمية المقدسة، في جولة لم تكن تكلف سوى عشرة فلوس، توضع في جيب صاحب العربة، ليعلو رنينها وهي تخالط سابقاتها. يخترق الباص الخشبي الشارع المقسوم جيئة وذهاباً بين صفين من أشجار صفصاف، ممتدة على طول الشارع، وعند الجسر يتوقف سير الأشجار لينحرف صفها في محاذاة النهر. رحلة الذهاب الجميلة عند الصباح كانت تختلف عن رحلة العودة عند انتصاف النهار، مع توقف الحركة في الشوارع في صيفٍ لا يرحم. كان عليه عند الإياب، أن يجد موضعاً يحميه من لهيب الشمس، وغير بعيد عن شباك، يعب الهواء له بدلاً من خنقة الباص. وما أن يصل لمحطته الأخيرة يسرع مهرولاً إلى البيت تتلهف جوانبه التي تحمى من نار مستعرة في جوفه ورأسه إلى الماء البارد، ليغسل به وجهه ورأسه وعنقه، وما أن يرد في خاطره ذكره؛ يشعر بابتهاج وتنبسط أساريره، وإن لم يذق برده بعد.

وجه الماضي لم يستطع الإفلات منه، فهذه المدرسة الدينية فيها تعلم الصلاة بصورتها الصحيحة، وهناك التقى أساتذة لم تقوَ طوارق الزمان على محو آثارهم الجميلة ونقوش أخلاقهم الرفيعة، وإشراق وجوههم الساطعة بالبشر الصادق حين تلتقي عين أي مخلوق. مدرسة عقد فيها أجمل العلاقات مع طلابها، ولم يسمع فيها كلمة نابية أبداً أو يرَ تصرفاً سيئاً. تمتع بالعروض المسرحية التربوية فيها، ولم ينس أنه حضر أول عرض مسرحي في حياته حين شهد مسرحية المشاكس ذي الخلق السيء الذي يربي طيوراً على سطح بيته، ولكنه يرمي بيوت الجيران بالحصى وكيف وقع في شر أفعاله بعد ذلك. كانت مدرسة جميلة، لم يشوه ذكراها إلا حين مر بها بعد خروجه من السجن، ليجدها قد صارت محلاً تجارياً.

انه تغير الزمان، عصر كان كل محل فيه يزود علماً وخلقاً، وحل بدلاً عنه عهد آخر كل ما فيه لا يريد من معاصره سوى نقوده. "سيري وعين الله ترعاك"، لافتة كانت تتجول مع باص المدرسة، قرأها سجاد كما فعل المارة، لكنه لم يفطن للحكمة المختزنة فيها، ولا لرسالتها بدعوة للناس للعيش بأمان، ولم تجد لها أذناً صاغية، إلا حين اختفى الباص الخشبي من الشوارع واختفى معه الأمان والعيش بسلام، وجاء زمن الخوف والحروب والجوع. حينها فقط عرف كما الآخرون، أن عين الله التي كانت ترعى الباص لم تعد مع أحد في هذا الوطن، وذهبت إلى مكان قصي ناءٍ، لا تلتقي أحداً من ساكنيه، ولو كان أكثرهم صلاحاً،

ومهما سعى للعثور عليها؛ فلن يجدها، ولو توهم في لحظة أنه سوف يلقاها في المنفى البارد.

"محروسة سبع الدجيل"، "الله ومحمد وعلي"، "محروسة أم البنين"، "يا داحي الباب"، غادرت هذا العالم لتحل بدلاً عنها، "لا تلحقني مخطوبة"، "القلب يعشق قبل العين أحياناً". ما خط بحبر الفطرة من دواة القلوب النقية على قرطاس البساطة، انتهى مع زمن الخشب المسافر، وآن أوان زمن الحديد القاسي المملوء بالحيرة والشك. الربط بين زمانين متضادين في كل شيء مهمة عسيرة للغاية، بل أكثر من ذلك، فما بينهما يرقى على التضاد ويبلغ حد التناقض. بهجة الطريق والترفق بالعابرين من أطفالٍ ونساءٍ وشيوخ تحمل نكهة لم يعد يشمها في شوارع مدينته الكبيرة، ولا الحي الذي يسكن فيه، إذ تكدس بمنازل ضيقة الأبعاد تزدحم بقاطنيها. الصفاء الكامل ماض انقضى، فثمة شيء قد أُفْتُقُد يلوح من بعيد كضوء خافت باهت، سوف يبهر العيون بإشراقته متى ما سطعت هداية الله، وملأت النفوس قبل أن تملأ الأرض، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

6

بدأت المدرسة لا تحمل له العلم بل المشاكل أيضاً، إذ صار مطالباً بالانضمام إلى منظمة تابعة لحزب السلطة الحاكم، تسمى "الاتحاد الوطني"، وكاد يرغم على ذلك. استدعوه مع آخرين يوماً لغرفة مخصصة لهذه المنظمة في المدرسة، وطُلب منهم الانضمام إلى المنظمة، وإلا عليهم مغادرة مقاعد الدراسة. دخل عليهم رفيق حزبي وتفرس في وجوه الحاضرين بعيون ملتهبة ليمتحن حضوره فيهم، ثم بدأ بإلقاء محاضرة طويلة مملة، وبدلاً من الإصغاء لها، انخرط سجاد في ضحكٍ متواصل، لم يعرف حتى هو سببه. حاول الرفيق الحزبي عبثاً إسكاته لمرات عديدة، وتنبيهه بأن عليه احترام الاجتماع الحزبي، لكنه كان مستغرقاً في الضحك إلى حد الثمالة، لعلها كانت نجدة السماء أو شيئا في داخله انبثق من اللاشعور، رأى أن المشهد برمته عبارة عن عبث مجنون، ولا يليق به سوى الهزء والسخرية. في النهاية ضجر الرفيق الحزبي من ضحكه وصرفه من الاجتماع بعد إن حدجه بوابل من نظرات شزراء لم تجد نفعاً، ظناً انه مجرد أبله لا يصلح لأي شيء. وبذلك نجا يومها من الانضمام للاتحاد الوطني للطلبة، إلا إنه توجس شراً مما يخبئه له المستقبل وماذا يضمر له. وبالفعل فإن المضايقات لم تتوقف هنا، فقد بات يخشى أن ينتقد رئيس الاتحاد الوطني الطالب الكسول، وحينما فعل ذلك، تعرض للمساءلة، لأنه بذلك انتقد الحزب و قلل من هيبة

وأهمية مسيرة الثورة المجيدة. وتمثل أمامه الوطن كشاخص من شمع يحترق بنار المعاناة، ويذوب تدريجياً؛ ليبتلعه قساة فاشلون كهذا الرفيق الحزبي، وحلوا محله وصاروا هم الوطن. إن كُفِرَ بهم كُفِرَ به، ومن يجرؤ على الجهر بكفره فلا شيء ينتظره سوى الموت في مقابر المجهولين أو في غياهب السجون السرية.

عند باب قاعة كبيرة تتوزع المقاعد فيها على مدرج يتكون من أكثر من عشرين صفاً تتسع لأكثر من مائة طالب جامعي في كلية الطب، وقف شخصان يطلبان من الأستاذ المحاضر أن يغادر الطالب مجتبى حامد سعيد القاعة لشأن خاص. نزل من المدرج وهو يتفرس وجهيهما يعصر ذاكرته بدون جدوى، إن سبق له أن عرفهما أو رآهما من قبل في أروقة الكلية. داخله شك وريب من هذا الاستدعاء المفاجئ، وزاد من قلقه واضطرابه أنهما اقتاداه من ذراعيه الأيمن والأيسر إلى حجرة بابها موصد اغلب الأوقات، في وسطه لافتة صغيرة كتب عليها "الاتحاد الوطني لطلبة العراق"، تحجب ضوء الشمس عنها ستائر سميكة تغطي زجاجاً يمكن رؤية كمية القذارة الوفيرة عليه من الخارج. بعد أن أدخلاه الغرفة، اغلق الباب من جديد، سأله أحدهم عن اسمه الكامل ثانية. أمروه بالجلوس على كرسي حديدي بمقعد بلاستيكي غير مريح في وسط الغرفة، ووقفا بصمتٍ مريب ونظرات وقحة تسقط عليه بين الحين والآخر. لم يجد في نفسه الجرأة ليستفهم لأنه توجس شراً، ولم يُرِد استفزازهما. مرت عدة دقائق لا يكلمه أحد وانهمك يقلب عينيه في

أرجاء الحجرة، يتطلع إلى الستائر الكثيفة وقد تراكم غبار غليظ عليها من الداخل تشبث ملتصقاً بحافاتها بوضع قبيح مزرٍ، خصوصاً حيث موضع تعليقها، وتأكد معها أنها لم تحرك من عهدٍ بعيدٍ متطاول في القدم، وقد لا تحرك أبداً.

حجرة طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة تقريباً، يدل مظهرها على عدم عناية، وأنها لم تستعمل لغرض مكتبي، غُطيت جدرانها بأكثر من صورة للدكتاتور، وهو يرتدي زياً عسكرياً، وعلقت في أجزاء أخرى من جدرها أوراق بحجمٍ متوسط، كتب عليها بعض من أقواله في أمور شتى، وخلف المكتب خارطة ملونة ترسم حدوداً جديدة للعراق، تضم كامل شط العرب ومناطق من جنوب ايران، توغل الجيش العراقي فيها واحتلها في بداية حرب الخليج الأولى. السقف عالٍ اكثر من غرف البناية الأخرى لسبب غير واضح. أثاث الغرفة يناسبها في الغرابة، ثلاثة كراسٍ حديدية، ورابع يقع في ركن من أركانها خلف منضدة حديدية بلون يشبه لون الكراسي الرمادي. يبدو أنها جميعاً كانت أجزاء طقم مكتبي رخيص. على المنضدة دفاتر وبضعة كتب، يعلوها غبار يعود لأسبوعين، أو حتى أكثر من ذلك على أقل تقدير، من يراها يعرف جيداً أنها لم تستخدم للقراءة أبداً، ربما وضعت للتمويه. وعلى كامل محيط الغرفة تقريباً، تمتد أريكة على هيئة ديوان جلدي، من السهل أن يرى المرء فيه مواضع قد تعرضت للحك والتقشر، إلا أنه مع ذلك لم تكن ممزقة، ولا يبدو عليها أنها قديمة أو بالية. وفي نهاية الديوان بجانب منضدة

المكتب، كانت تقف مكتبة خشبية تتكون من جزئين، العلوي منه بابان زجاجيان شفافان مغلقان بمفتاح موجود في فتحته، ويحتويان رفوفاً عالية مخصصة لمحافظ الأوراق والمستندات الكبيرة، والجزء السفلي بابان خشبيان موصدان ولكن بلا مفاتيح. وفي وسط السقف العالي تتدلى مروحة هوائية لا تدور، ويضيء الحجرة مصباحان أبيضان رفيعان طويلان، قد يصل طول أحدهما قرابة المتر.

دخل فجأة رجل أربعيني عليه بدانة قليلة وغلظة جلية وسأل الآخرين:

- أهو هذا؟

- نعم، سيدي

ثم توجه لمجتبى بالسؤال بحدة

- لَكْ، أنت ليش ما تصير بعثي؟

- أستاذ، أنا منشغل بالدراسة، ولا أتدخل بالسياسة

- واللي يصير بعثي يعني لازم يترك الدراسة! لَكْ، أنت ليش ما تصير آدمي.

- أستاذ، أنا ما مسوي شيء غلط.

- وكربلاء كل خميس رايح لها شنو؟ وربعك اللي تمشي وياهم جماعة ضرب الركعة شنو لعد؟

- .... لم يرد مجتبى على السؤال.

أنما جاءه صدى صمته بلا احتساب صفعة هائلة سقطت على وجهه، أطاحت به من الكرسي، حاول النهوض لكن الرجلين الواقفين المجدين في إيذائه، تناوبا عليه رفساً وصفعاً وسط ذهوله، وهو يلمح وجوههم الكالحة ونذر الشر تتطاير من محاجرهم. جسمه الضعيف العاجز عن المقاومة، صيره هدفاً سهلاً تستبق إليه الهراوات والأقدام. لم يتوقف مشهد الضرب إلا حين جاء أمر الرجل الأربعيني.

- خلي يوقع على التعهد! واذا ما صار آدمي نعرف شغلنا وياه.

خرج الرجل، كما دخل وسط استعداد وتأهب الرجلين. وأمضى "مجتبى" على تعهدٍ بعدم الانضمام لأي حزب غير حزب البعث تحت طائلة الإعدام في حال المخالفة. خرج مبعثر الهندام والمشاعر، والظلام يجثم عليه من كل حدب وصوب، يسير بلا هدف ولا معين. سجاد وقع على التعهد نفسه في غرفة الاتحاد أيضاً في مدرسته الثانوية، ولكن ليس تحت هذه الظروف القاسية، ولا بإشراف غرباء بل برعاية تلاميذ من المدرسة نفسها. هذه الحادثة ليست الوحيدة، بل سبقها حدث آخر، حين استدعي الحاج "حامد المهدي" إلى مديرية أمن المنطقة، وتم التحقيق معه عن سبب مواصلته إقامة المجلس الحسيني. كان الاستدعاء رسالة تهديدٍ واضحة على الرغم من إن المجلس كان يقام بموافقة أمنية سنوية. فهم الرسالة جيداً وألغى المجلس الحسيني، بعد أن كان قد توقف سابقاً عن إقامة المسرحية السنوية "التشابيه". حتى توزيع الطعام في يوم العاشر من محرم أصبح عملاً سرياً، ويجري بتكتمٍ مبالغ به وسرية مفرطة بعيداً

عن العيون والأنظار، بل انه فكر يوماً بإيقافه هو الآخر؛ فاستشار أولاده، ونصحوه بالاستمرار به، لأنه لم يبق لهذه المناسبة من أثار التعظيم سوى هذا الطقس، وإيقافه يعني اندثار كل شيء، ولن يعود أي ذكر واحترام لهذا اليوم ذي الوقع المؤثر في نفوسهم. وعلى الرغم من حظر إقامة المجلس إلا أن ذلك لم يوقف مجتبى عن قراءة المرثيات بصوت حزين يتهدج عند المرور على ذكر الوقائع الأليمة. عادة لم يتوقف عنها مذ كان صغيراً يجمع أشقاءه وأقرانه مؤدياً دور الخطيب الحسيني، وعندما صار حتى هذا ممنوعاً وبه محاذير وربما يحمل اعتراض والده أيضاً، كان يختلي يومياً في غرفته، ويخرج من تحت وسادته كراساً للشاعر كاظم المنظور الكربلائي، وينشد قصائده بطريقة النعي العراقية الاستثنائية في الغناء الحزين، وكثيراً ما ردد آخر ما لهج به لسان الشاعر نفسه على فراش المرض، بل وهو في صحوة الموت:

علتي الچامنه بحشاي ....لگيت اللي يداويها

دواها بتربتك يحسين .... روحي بيك أسليها

وين دواي.. جرحي الداي.. عند حسين تضميده

الوجه المرعب لمستقبل الأيام صار يطل من أخبار تصفية المعارضة أياً كان توجهها، فمرة تعلن وسائل الإعلام الرسمية في أواخر عام 1974 نبأ إعدام مجموعة من المتدينين البارزين بينهم رجل دين

معروف[1]، ثم قمع تظاهرة احتجاجية في 1977، أثناء زيارة الأربعين الإمام الحسين، ومعاقبة المشاركين فيها بأحكام قاسية وصلت حد الإعدام لبعضهم أو السجن لمدد طويلة للبعض الآخر، وأشد ما فيها هو جرأة النظام عندما طال بقمعه شخصية دينية معروفة[2]. إنما أكثر ما أنزل الرعب في قلب "سجاد" هو اعتقال قريبه الشيوعي "حاتم المهدي". يرى تزاحم الأقدام والهمس الخافت في مضيف والده بغية التوسط لدى معارف لهم علاقة برجال الدولة لإطلاق سراحه. الحيرة الكبيرة والقلق المفزع المرتسم على وجوه الأقارب دخل عميقاً في قلبه، وهو يرى حاتم يخرج من المعتقل مشلول الحركة، بل عاجزاً عنها بالكامل، يكاد يحسب من الأموات لولا رئة لم تهجر عادتها بعد في الشهيق والزفير، وقلب لم يزل يواصل النبض ببطء من تحت بطانية تلف سائر جسده المثخن بالجراح، أو بالأحرى ما تبقى من جسد.

"خرج في بطانية" عبارة قرعت رأسه بعنف، وهزت بدنه الغض، وبعثت في صدره وقعاً مخيفاً وهو يسمع نحنحة الرجل من تحتها ترسل نذراً بالمتاعب والآلام لمن يتصدى لمعارضة السلطة، وعلى أثرها قرر أن لا ينضم لأي حزب معارض، لأنه بانضمامه سوف يحمل أسراراً، قدّر أنه لن يقدر على حفظها، وبذا سوف يعرض نفسه وغيره لخطر

1ـ الشيخ عارف البصري ورفاقه

2ـ سيد محمد باقر الحكيم نجل المرجع الديني السيد محسن الحكيم

عظيم. ومع هذا، فإن اقتراح حامد المهدي لأولاده بالانضمام الصوري لحزب البعث كما تفعل أغلبية الناس لم يلق قبولاً بالمرة. كان جواب سجاد مختصراً شافياً.

- يا حاج، أنت تقول دائماً أن البعثيين لا مروءة لهم ولا ذمة ولا ضمير، وأنهم عديمو الأخلاق، فهل تريدنا أن نصبح كذلك؟

- لا فائدة من الكلام معكم قوموا عني! هكذا أجابهم الحاج بعدم رضا يساوره القلق. وفض مجلس الاستشارة بعجل مدركاً أن لا سبيل لتغيير قناعاتهم واستشعر مستقبلاً محفوفاً بالمصاعب.

كان مجتبى عنيداً متطرفاً في آرائه صلباً في مواقفه، على خلاف والده البارع في مسايرة الناس. عناده وصلابته كما ميزته عن أشقائه، فإنها باعدته أيضاً عن أقرانه وزملائه في كلية الطب التي انضم لها في عام 1981، وعزلته في مجموعة محددة مع طلبة ذي التزام ديني حاد، ولهم آراء سياسية لا تخفى على أحد. شغفه بالدراسة، وقضاء معظم وقته فيها، لم يقلل من اهتمامه بالنشاط السياسي بطابعٍ ديني أستهواه بدرجة مكافئة، وصار يقدم خدمات اجتماعية لعوائل أعدم أو اعتقل أبناؤها في موجة القمع الرهيبة التي استعرت مع بداية حرب الخليج الأولى مع ايران. شاطره سجاد في هذا النشاط ولكن بدون الانخراط بأي تنظيم حزبي، ملتزماً بالعهد الذي قطعه مع نفسه بالامتناع عن ذلك. لكنه لم يكن يجهل، بأن ما يقوم به من دعم مادي يخص انصار جماعة سياسية معينة ذات توجه ديني، إلا أنه رأى في مساعدة المحتاجين والمعوزين

عملاً إنسانياً، وبه عرفت عائلتهم على طول تاريخها؛ لذا لم يعدّه نشاطاً سياسياً، وكان يحدث نفسه: حتى لو اعتقلت بسببه، فلا ضير من هذا. لأنه كان يظن أو بالأحرى كان على يقين، بأن العمل الإنساني وإن كان ضد رغبات السلطة ويحسب من الممنوعات، فان عقوبته لن تكون فادحة، وأنه سوف يحظى بإطلاق سراح سريع سلس، ولربما حتى في اليوم نفسه الذي سوف يعتقل فيه.

يقينه هذا، ربما يوحي بأنه يافع غرّ ساذج، ولكنه لم يكن كذلك، لأن الساذج تتلازم معه سرعة الثقة بالآخرين بدون التفكير بأحقيتهم بها من عدمها، ويكون تابعاً لمن يثق به، ولا يستخدم عقله في تمييز ما يعترضه، يتأثر سريعاً بأقوال وأفعال غيره. وتبقى أهم خصلة في الساذج أنه صريحٌ حد الإفراط يكشف جميع ما عنده لغيره بلا مقابل، وليس عنده من أسرارٍ خاصة به. وهذا ما لم يكن عليه سجاد أبداً، فهو وإن كان ودوداً، لين العريكة، سلساً، سهلاً ومطاوعاً، يندر أن يُرى منه شراسة أو نفور، إلا أنه لم يمنح ثقته لأي أحد. كان يتخذ قرارته بنفسه، ولم يتأثر باندفاع أصدقائه للعمل السياسي، رغم أنهم يحيطون به من كل جهة، وظل يحتفظ بأسراره لنفسه حتى عن شقيقه المقرب منه "مجتبى". إنما تملكه هذا اليقين لبراءته وطيبته، ويمكن عزوها أيضاً لقلة خبرته في الحياة والسياسة على وجه الخصوص.

7

لم يرجع مجتبى حتى الآن من الكلية، دهم النفوس هاجسٌ مرعب، عززه سماع أخبار مؤكدة عن اعتقال مجموعة من أصدقائه المقربين قبل يوم، ومن ثم جاء اعتقال شقيقه الآخر "طه" في اليوم التالي، ليحول الهاجس إلى كابوس. وقعت الواقعة إذن، وحل اليوم المرتقب. حزن، حيرة وخوف، ترتسم على وجوه مضطربة أثقل النعاس أجفانها، واصطبغت بصفرة كصفرة الغبار الكثيف الذي ملأ جو المدينة يومئذ. كان الحاج يبدو ذاهلاً ذهولاً غريباً، قلقاً مهموماً مغموماً، سلوكه وتصرفاته شاذة لا معنى لها أو لا تفهم، يصغي ولا يسمع، ينظر ولا يرى. مشهده وهو يجلس في يومٍ بارد على الأرض ولا بساط تحته، وحيداً في حوش الدار ينتحب، زاد من قلق سجاد، وتدافعت صور التعذيب إلى مخيلته، التي خصبتها أحاديث طالما تناقلتها الألسن عن وحشية التعذيب، عززتها بنحو اليقين صورة حاتم المهدي الملفوف ببطانية. طلائع الليل تزحف وتجثم عليه كالجبال، وهو يرنو بعينيه من نافذة شباك في بيت شقيقه إلى الغبار الكثيف الذي حجب عنه كل شيء، واحتجبت خلفه قادم أيامه. بات ليلته مسهداً لا يعرف النوم إلى جفنه سبيلاً، صامتاً أغلب الوقت، وقد استبد به الغم والقلق، وحين ينطق بحرف أو لفظ ما يبدو كأنه يتكلم استجابة لحاجة من فعل لا إرادي في داخله وليس لضرورة، أو كأنه تحت سيطرة حمى أدخلته في حال

هذيان. ثقل الليل أشعره بنوع من الأمان النسبي لوهلة بددتها خاطرة سرت في نفسه، ظلام هذا الليل لن يمتد إلى الأبد وسرعان ما سينقشع فبماذا سأستتر إن كان لي ساتراً الآن؟

عند الغبش خرج حائراً هائماً يرتدي سروالاً من بيجامة نوم، لم يفكر بتغييرها إمعاناً في العبث المسيطر على كيانه. يسير بلا هدىً، يترنح وحاله تنذر بالانهيار، يرمي بثقله على أسوار البيوت بين حين وآخر مستنداً عليها، تتلقفه أزقة ضيقة وتلفظه أرصفة عريضة، يشق طريقه بعيداً عن الفضاءات الواسعة، لعله يتوارى من قدره. يزداد تلفته كلما أوغل في المسير، يدمدم مع ذاته، ويصرخ في أعماقه، المذنب في ذلك أخي، بل زوجته التي حرضته على طردي، بل هو، ولماذا يسمع كلامها لو لم يكن يريد ذلك؟ هل أذهب إلى المدرسة اليوم، أي مدرسة هذه التي تفكر بها الآن؟ لتذهب إلى الجحيم، وان لم تذهب هي إلى الجحيم؛ فهل ستذهب لها بهذه البيجاما وهذا البلوز بخيوطه المدلاة على صدرك؟ لماذا لا اهرب؟ أنها فكرة حسنة، نعم سوف أهرب إلى مكان مزدحم وأذوب فيه، نعم ليكن الشمال[3]، وهناك سوف أجد مخبأً وملاذاً؟ سوف يكون الطريق شاقاً صعباً، إنما سوف أتحمل المشاق مهما كانت لبلوغه، وأنجو من جحيم البعث. ولكن لو أفلتت من مطاردة عملاء الأمن، فهل سوف أقدر على العيش هارباً مطارداً إلى الأبد؟ وهل

3ـ شمال العراق

تطيب لي الحياة بعيداً عن أهلي في المنفى؟ يسير محملقاً في العدم اللامتناهي وأفكاره تتلاطم، حتى صحا من غفلته على زعيق صوت منبهٍ مرح لسيارة وقفت بمحاذاته تماماً. ارتد وجلاً، فقد تناهى إلى أسماعه كأنه صفير قطار، وإذا به مازن الكردي اختلس كالعادة سيارة والده.

- اصعد، قال له طلعت.

هذا ملاذ اليوم لنجربه إلى حين، حدث نفسه وهو يصعد العربة. سارت بهم السيارة في شوارع الحي بلا هدى ولزمهم صمت غريب، لم ينبسا بشفة طوال الجولة العبثية. كانت هيئة الإعياء والإرهاق بادية على وجهه، ورغم المكابدة لحد العذاب للتغلب على قلقه، يحاول الابتسام بين حين وآخر، عندما تلتقي عيناه نظرات طلعت، لكنها ابتسامات تشي بالحيرة والقلق وبتصاعد منسوب الضياع والتلاشي، وبالاضمحلال في كونٍ غدا كثقب اسود يسحبه بقوة هائلة وعلى شفا أن يبتلعه. وما زاد من قلقه مقداراً إضافياً، حين قال له:

- جاء جماعة اليوم إلى المدرسة وسألوا عنك!

- أي جماعة؟

- لا أعرف، المدير فتش كل زوايا المدرسة عنك، سمعته يقول لهم، أنه لا يغيب أبداً.

كان للجولة العبثية حدٌّ لابد أن تبلغه، قبل أن يفتقد والد طلعت سيارته، وحينما بلغت خاتمتها بدأت جولة أخرى اكثر عبثاً منها.

ما أن وطأت قدماه الأرض حتى تقدم منه رجلان، وهما يرمقانه بنظرات تسّاقط عليه كأنها حجارة من سجيل، تخترقه وتفجر في قلبه كماً جديداً من الفزعوالوجل.أول الشخصين في الثلاثين من العمر فارع القوام، يرتدي قميصاً طويلاً يكاد يلامس وركيه، يخفي حزام بنطلونه الرمادي والسلاح المعلق فيه، تقدم اتجاهه بحزم وسأله بصرامة محترس:

- هل تعرف صالون كلارا للتجميل؟

لم تنطلي عليه خدعة السؤال، وهو يرقب التحفز البادي على الرجل الآخر، وهو يحدق به بعيونه الرمادية ويرسل منها نظرات حادة ثاقبة بشكل وقح فج، كما لو كان يحاول النظر في داخله واستلاب شيء ما منه. سار معهما مكرهاً، وإن لم يطلبا منه ذلك صراحة. بدا كأنه قد استسلم لقدره وهو يمضي إلى مصير مجهول معتم. صار بين كماشتين، الأولى بطول متوسط، وصلع خفيف فوق وجه شاحب مغطى بالنمش، عابس متجهم، والثانية بطول فارع وبنية شديدة توحي بالقسوة أكثر من الصلابة والقوة، وما أن تواروا جميعاً بعد بضع خطوات عند أول منعطف، همس في أذنه صاحب العيون الرمادية:

- لا تحاول الهرب وسر معنا!

- ولماذا أهرب؟ لم أرتكب خطأ أهرب منه.

أنهت الحوار القصير سيارة مسرعة، كأنها شبح خرج من العدم. أعلن صوت مكابحها المزمجر عن نيتها الشريرة بالتهامه فيها، ثم وجد نفسه خلال ثوان مقيد اليدين، يجلس في المقعد الخلفي بين عنصري

أمن، وثالث يجلس بطريقة متحفزة في المقعد الأمامي. جرت بهم العربة إلى مبنى ذي طابقين، جميع نوافذه الثلاث العليا محصنة بشبكة حديدة انسدلت عليها ستائر باهتة اللون، لم يكن من السهل اكتشاف لونها الحقيقي لكثرة ما تعرضت للشمس. فتح أحدهم من الداخل بوابة كبيرة سماوية اللون من قطعتين متماثلتين، كليهما مرتفع أعلى من أي قامة محتملة لمخلوق بشري، وتتسع لمرور شاحنة لو فتحت على مصراعيها. ولجت السيارة في موقفٍ لا يتسع لأكثر من ثلاث عربات إلا بصعوبة، مضاءٌ بمصابيح شاحبة موزعة على السقف المعدني، وعلى الجدر التي تغطيه من سائر الاتجاهات.

اقتيد إلى الداخل بعد أن عصبت عيناه قبل الولوج في المبنى، في لحظة أرخت بدء ضياع العالم. بدأ الظلام يتراكم، حين اقحم في زنزانة مزدحمة حد الاختناق بالعتمة، مسكنه الأول في العالم الآخر، مسكن بلا شبابيك، وباب حديدي باطنه تيه وظاهره عذاب. لا معالم للزنزانة يمكن وصفها سوى ماسورة مثبتة بحائط، احتضنت قيده لنصف ساعة كأنها ثقل الدهر، ولون أسود تسرب إلى كل ما فيه، فلم يعد يرى شيئاً إلا صورة ابن عمه الشيوعي "حاتم المهدي" تطوف في رأسه، تحف بها فوضى عشوائية لهيئات تعذيب، لن تصدق أي واحدة منها مستقبلاً، لأنها ستكون أفظع مما يتخيل، في عالم لا يعرف شيئاً عنه اكثر مما يعرف عن جحيم الرب المستعرة بالناس والحجارة.

دخل الزنزانة على وقع صفعة حادة، تبعتها ركلة كومته على الأرض الإسمنتية، وكلمات غاضبة بصوت جهوري عال تنحدر سيلاً عليه بوقع أشد من كل ما تلقاه جسده من أذىً.

- اجلس هنا! ولو تفوهت بكلمة واحدة، لأشبعنك ركلات وصفعات متلاحقة مثل تلك وأكثر، وسوف اسلخ جلدك ضرباً.

لم يطل به الوقت حتى استدعي إلى مواجهة ضابط بادره بالقول، انك متهم بالتحرش بفتاة، فماذا تقول؟

تيقن أن لا حقيقة لهذه التهمة المفتعلة، وانها تُذكر لسبب آخر لا يعلمه. لكنه قرر أن يتماشى معها، فليس هناك ما يدعو للاعتراض عليها، فقد يسحب على نفسه تهمة أخرى مضافة لما ينتظره أصلاً.

- من هذه الفتاة؟ سأل الضابط بتحدٍ خفيف

- ابنة الوجيه عبد الوهاب الهيثمي، هل تعرفه؟

- نعم، اعرفه، هذا صديق والدي، ونحن نحترمه ونجلّ قدره هو وعائلته وعلاقتنا وثيقة به، فكيف أتحرش بابنته؟ من أخبركم بهذا فهو مخطأ.

- سنرى بعد قليل.

في الساعة الأولى التي قضاها ـفي الزنزانة، وعندما يقال ساعة فإنها ليست ساعة بالمعنى الحرفي، فقد اختفت العقارب من ساعات الكون حينها؛ ففي تلك الأماكن يضيع الزمن، ولا يبال به أحد، استعاد بعضاً من شتاته، واستذكر عبارة والدته الغريبة، التي لم تبرح ترن ـفي أذنيه.

- لا تخف، إنما السجن للرجال.

حين قالتها، نظر لها بكثير من الاستغراب، ودهمه لوهلة إحساسٌ كثيف بالاشمئزاز من كلماتها، وهو يرى والده في الوقت عينه، بعد اعتقال ولديه مترقباً اعتقال الثالث، يتقلب بين البكاء منتحباً أو يجلس صامتاً والحيرة تطبع أثرها على وجهه، وحين يتنهد يكاد يزفر فتات كبده. في ثنايا هذا الفزع والجزع تقف هي صلبة بعيون جامدة متكلسة، تدعوه لعدم الخوف، كأنما تحرضه وتدعوه للاستعجال بالذهاب إلى السجن. كيف عليه أن لا يخاف، وها هو يرى الفزع يلتصق في كل زاويا البيت وأركانه. أي أم هذه التي لا تذرف دمعة، ولا يغزوها الاضطراب الذي دهم العائلة بأسرها، وأي جَلَدٍ يسكن فيها، وأولادها الثلاثة يختفون أمام ناظريها من على وجه الأرض في أسبوع واحد، ويتسربون إلى قاع غور لا قرار له؟ هل إنها حقاً تملك شيئاً من حنان الأمومة وعواطفها كالنساء الأخريات؟ الرجل هو الأقوى، والمرأة هي الأضعف هل هي معادلة مقلوبة، أم إنها امرأة بلا إحساس ولا عواطف؟

عاصفة من الهواجس بدأت بالتناسل في رأسه ولم تتوقف عن الانشطار والتكاثر، حين جلس منعزلاً وحيداً في الزنزانة، وهو يصيخ بسمعه إلى شرنقة الصمت التي أحاطت به، ويرى العدم قد امتص الكون بأسره، وازدرد ما احتواه بلقمة واحدة، وأحاله متضائلاً متلاشياً إلى كهف مظلم لا فتحة فيه، جدران صماء بلا لون. هناك فقط أدرك حكمة أمه وصلابتها، وإن الأولوية الآن هي للمحافظة على رباطة جأشه. الرعب

والفزع من مواجهة العدو، هما أخطر سلاح يتمكن به العدو من الحاق الهزيمة به، وعليه أن لا يتمكنان منه أو لا يبرزهما، بل أن يواريهما في أكثر الأماكن سرية وتخفياً.

نبع الدموع الرخيصة التي تذرفها "زهرة المهدي" في مواقف شتى في كل يوم، صار منجماً لا يقتلع منه إلّا حجراً خشناً، ولم تفقد قدرة التحول هذه حتى حين التقاها بعد سنوات في أول مرة يسمح له بالزيارة. إنها "ميدوزا" الجميلة، من ينظر لها يغدو في الحال حجراً صلداً مفعماً بالروح والكبرياء، يهشم به غرور العتاة والطغاة، إنها ليست "ميدوزا" التي تمقتها أثينا، بل إنها التي خلقت من طين سومر الجنوبي، وعجنت بجَلَد زينب وهي تقدم فرس المنية لأخيها في عاشوراء الطف، تحبها السماء لأنها بلا خطيئة، ومنحتها ضفائر بلون ثلجٍ متوهجٍ يشع طيبة وحناناً، ويحتضن ذكرى من غادر بغتة بلا وداع. عويلها الصامت لا تسمع له همساً، إلاّ في عزلتها وهي تذرف دموعاً ساخنة تبحر بانسياب مثل مشحوف يسري مع قصب الأهوار على أنغام أنين شاعر جنوبي تتغذى عذوبة قريحته من وجع آلامه، ويتسرب نشيده بين القصب، يغذي طيور الفلامنكو المهاجرة ويطعم السمك الزوري.

نظرة واحدة منها على ما فيها من الرقة والعذوبة، إلّا أن فيها ثقلاً وتعبيراً مفعماً، تفيض اشتعالاً واتقاداً، وتنفذ في كيان من تقع عليه، وهكذا وقعت عليه. هزت كيانه بأسره وأعادت له عنفوانه وكبرياءه، وحبست مآقيه عن الدموع قبل أن تبلغها، حين رأى والده وأشقاءه

وشقيقاته لأول مرة بعد ست سنوات عجاف. ومع أن اللحظة كان لا يصلح فيها شيء سوى البكاء وسقي الوجنات بالدموع، لكن دموعه جمدت، لأنه كان يجلس معهم طوال الوقت رجل أمن بأنف عريض أفطس ووجنتين بارزتين، وعلى وجهه ابتسامة غريبة ساخرة وقحة، مبغضة وحاقدة، مع أنه يجهد بين حين وآخر أن يبدي عليها مظهراً من الرقة والعطف، محاولاً أن يلطف من شعور النفور منه، الذي داخل كل من حضر في تلك الحجرة. كان يبالغ في تغيير قسمات وجهه وإضفاء ألوانٍ متغيرة ومتنوعة من التعابير، ولكن محاولاته لم تجد نفعاً. وخلاف نيته المفضوحة، كان ما يظهر عليه، أشبه بشحوب جثة، رغم أنه كان قوياً متين البنية؛ مما رسم عليه مظهراً من الإعياء أكثر من القوة والرهبة. وأسبغ على ملامحه هيئة سافرة من المكابدة والعناء والعذاب، ومن شعور خفي بالخذلان والخسران يطفح على قسمات وجهه رغم سعيه لسترها تحت قناعٍ فظ غليظ من نظرات عدوانية وابتسامة متغطرسة. حضوره الممقوت هذا استجلب بالضد منه الكبرياء والفخر عند سجاد، وفقه لحظتها بعمقٍ معنى كلمة إن السجن للرجال، وأدرك أن بقدر ما عليه بغض السجن فعليه أيضاً أن لا يهابه ولا يفزع منه، لأن السجون صنعت للأحرار ولكل مخلوق جميل.

السؤال عن مجتبى كان شوكة معقوفة سكنت أحشاءه، إن وقفت تشبثت بحفر جدرانها تجرحها، وان سرت في عروقه وخزتها وأدمتها. لم يجرؤ على السؤال، هل وجد جسده مأوىً مريحاً له أم ضاع مع

أحلامه؟ سؤال لن يجد وقتاً للحديث عنه، إلّا بعد وقت طويل. حين انهار في أحضان أشقائه، وهو يخرج من بوابة السجن العالية. أجهش بالبكاء، وانسابت الدموع من عينيه، سيلاً جارفاً يحرق ما اختزنه قلبه من الكبت والحرمان لعشر سنوات متتالية. قيل له أنهم حصلوا على جثة ولم يتعرفوا على صاحبها، ليس لأن ملامحها قد ضاعت جراء تفسخها، وقد استحال لونها إلى ما هو أغمق من الأزرق الداكن، بل لو قيل أسود لما كان ذلك تجنياً على الحقيقة. لم يقبلوها لأنها لم تكن تعود له أصلاً. مواصفات جسد الشاب الملقى في غرفة الطب العدلي بلا عناية تختلف تماماً عن صورة "مجتبى" في أكثر من شيء، لا تخطأه عين من عرفه، فكيف وأمه قد أنكرته، وقالتها صريحة: إنه ليس ابني. وجهه الحليق دائماً، لأن لا شعر ينبت له، كيف أصبح كث اللحية هكذا، بل إنها أزهى من شعر رأسه؟ وما هذا الشعر الذي غزا سائر جسده بل يغطيه. وهل تاهت عن "حامد المهدي" قامة ابنه وما عاد يميز بين الطويل منها والمتوسط الذي كان عليه ابنه. أسئلة ممنوع الجهر بها، وتترتب عليها عاقبة وخيمة للغاية، إن رفض استلام الجثة. عليه أن يقبل أنها جثة ولده سواء كانت له أم لم تكن، وما من خيار أمامه سوى أخذها ودفنها بلا مراسم عزاء، وبدون تقبل مواساة من أحد، ومن يجرؤ على ذلك؟ غير مسموح لعوائل معارضي السلطة أن يختاروا حتى أجساد أبنائهم الصرعى، وعليهم أن يلزموا الصمت، فقيادة الحزب والثورة كانت متساهلة معهم حين سلمتهم جثة، ولم تدعهم ينتظروا عقوداً، لينبشوا

مقابر جماعية بحثاً بين العظام عن أثر يدلهم على رفات يفتش عن مستقر يستريح فيه.

مع أنه كان في حاجة ماسة لإبداء حزنه، وإلى البكاء بحضرة عائلته، لأن الحزن المضطرم في داخله كان حالة حميمية لا ينبغي له أن يشاركها مع أحد غيرهم، إلا أنه تجنب مبادلة أهله مشاعر الحنين؛ كي لا يبدي ضعفاً أمام جلاده، وليثبت لأمه أنه لائق للسجن عرين الرجال. تحمل بصبر نظراتها المعذبة أكثر من عذابات السجن، حابساً دمعه، شاداً بإرادة راسخة بأقصى ما يستطيع على أحاسيسه، حتى حسب أن كل شيء يخصه صار هباءً . كبت المشاعر أشعره بالتعب والإرهاق في ساعة الزيارة الأولى مع عائلته ولم ينقطع عن إجهاده فيما بعدها. كان جرحها موجعاً مؤلماً ومرهقاً، ليس لأن مشاعره ذات قيمة كبيرة عنده وحسب، بل هي جزء منه، وكبحها أو قتلها كان بمثابة بتر لعضو منه بلا تخدير، أو حتى أشد من ذلك. الأيام التي أعقبت تلك الزيارة، مع أنها أغرقته بتفاصيلها، لم تسعفه في تفادي الألم، ورسخت في وجدانه تلك النظرة، التي كشفت عن ملامح قلب أمه المثقل بالحزن والشوق لضمه، رغم ما بدا على وجهها من الصرامة والتجلد.

الزيارة الأولى كانت غريبة، وأحاطت بها هواجس كثيرة من الشك والريبة، فاستدعاؤه من قبل عناصر الأمن منفرداً، كان أمراً مريباً، في وقت لم يكن يسمح بالزيارة لأي سجين. كان السجناء السياسيون يعرفون نوايا السلطة في التعامل معهم، من خلال الأخبار التي ينسبها

إعلام النظام لخصمه الرئيس الحكومة الإيرانية آنذاك. فكل ما كان ينسب لنظام الحكم الإيراني كان في حقيقة الأمر يجري تطبيقه حرفياً في السجون العراقية، ويشهده السجناء بأعينهم ويكونوا مادة له. ومن ضمن ما كانت تذكره وسيلة الإعلام الرسمية آنذاك، وهي قناة تلفزيونية واحدة يسمع السجناء صوتها وقليل يحظى برؤية صورتها، إن السلطات الإيرانية تستدعي عوائل السجناء السياسيين للزيارة، وما أن يحضروا حتى يجدوا أمامهم جثث أبنائهم وقد نفذ حكم الإعدام بها. وقد حصل هذا بالفعل لسجناء سياسيين عراقيين، ولذلك دخل الرعب قلبه، واحس أن نهايته أوشكت على الحلول. تزايدت شكوكه، حين جاء الأمن وأخرجوه لمواجهة أهله. جلس في غرفة صغيرة معزولة عن العالم، لا يصل إليها صوت من الخارج ولا ضوء ينفذ إليها، وبدا أن الكون قد كف عن الحركة. ما استغرقه بقاؤه في هذا المكان قد يبدو قصيراً إن قيس بلغة الأرقام، ولكن كأنه الدهر، حين يمر الوقت كحز الألم وتتمزق الأعصاب من العذاب الصامت، وتتهشم الروح من الشعور بالخواء والغطس في العدم، وهي تَجِدّ عبثاً في البحث عن مبرر واحد للتواجد في هذا المحل المعتم. أحاديث الظلام ورعبها لا يمكن أن تروى، لأنها تطمس كل شيء، أي شيء إلّا الموت، فهو الوحيد الذي يرى طريقه في عتمة الظلام، وتزداد موهبته تألقاً في اختيار النفائس التي يُرْكبها ظعنه وينزح بها إلى مملكته.

اقتحم الغرفة كالبرق وجه جديد لم يألفه من قبل، ممشوق القوام بشعر مصفف بعناية، أنيقٌ في مظهره، علامات الحزم والجد ظاهرة عليه، بدا عليه التعقل وغاب عنه الاستهتار والرعونة، وهما سمات لازمة لعناصر الأمن. عرّف نفسه بانه النقيب ضياء، وسأله باقتضاب هل عندك ابن عم اسمه محمد؟ صوته الجاف الغامض الحاد الخالي من المعاني والتعابير الإضافية، جعلت من "نعم" سجاد ترتعش في داخله، رغم تماسكها الظاهري، وأحاطت به مخاوف جدية، وهواجس من اعتقال قد طال ابن عمه. إلّا أن نقيب الأمن انتقل سريعاً إلى موضوع آخر، وبدأ يسأله عن السجناء: بمَ يتحدثون في الزنزانات، طالباً منه التعاون في نقل أخبار السجناء، وبتعبير أصرح "الوشاية بهم". جوابه كان فيه كثير من العمومية والتسطيح، حين ادعى انهم لا يتحدثون بشيء، سوى عن عفو رئاسي طال انتظاره، وأنهم مرضى مهتمون طوال الوقت بالمكافحة والنضال للبقاء على قيد الحياة. هذا الجواب لا يقبله رجال الأمن بالعادة، إلّا أن ضعف جسده الجلي وآثار المرض البادية عليه بلا عناء ولا تكلف، جراء إصابته بالتدرن الرئوي، أقنعت نقيب الأمن بإنهاء المحادثة القصيرة، وعجلت من مواجهة أهله بسرعة في حدث لم يكن يصدق وقوعه حتى قبل ثوان قليلة. مقابلتهم في تلك الظروف، كانت أمراً غريباً وحدثاً عجيباً، لا نظير لها سوى المعجزات المذكورة في كتب الأساطير والملاحم في قصص الأقدمين، وإلّا مَنْ هذا الذي يصدق وهو حبيس زنزانة مظلمة لسنوات متتالية، لا يسمح له بالخروج منها ولا حتى

لمرة واحدة، أن يجتمع مع أهله من جديد وهو لم يزل نزيل هذا السجن المرعب؟

8

قبيل بلوغ مديرية الأمن العامة، طلب منه رجل الأمن أن يخفض رأسه، ثم عصّب عينيه بعصابة جلدية، وأمره بوضع رأسه بين ركبتيه. بعد دقائق معدودة ركنت السيارة في محل ما، واقتاده حارس إلى سلم داخلي يؤدي إلى طابق ثان. طلب منه أن يرتقي السلم بدون تعثر، وإلّا تعرض للضرب. كان وقع الأمر مفاجئاً عليه، وموضع تعجب واستغراب، فكيف له أن يصعد سلماً ولا يتعثر، وهو كالأعمى؟ مع ذلك حاول أن يمتثل للأمر وينفذه بدقة، بضرب مقدمة حذائه الأيمن في نهاية كل درجة في السلم، ليتأكد أن السلم لم ينته بعد، ثم يرفع قدمه اليسرى ويضعها على الدرجة التالية. نجح في ذلك ولكنه لم ينج من التوبيخ، ونال حصة وافرة من الشتائم لبطء حركته.

أُجْلِسَ في دهليز معتم مع عدد آخر من المعتقلين، خمّن كثرتهم من تباين أصواتهم المتداخلة بين أنين وتأوه، وطلبات يائسة من بعضٍ يسأل بلا جدوى أن يرخى قيده قليلاً، لأنه كاد يقطع كفه وآخر قتله العطش وصارت أعز أمانيه جرعة ماء، إلّا أن أكثر ما استفزه هو صوت ناعم لفتاة يبدو أنها في مقتبل العمر تشاطر ظلمة الدهليز مع جمع ذكوري. سكنته مشاعر من الخوف والقلق مع كل صرخة وجع، وأخرى من الانبهار وعدم التصديق وهو يسمع صوت الفتاة الأسيرة، فهذا ما لم

تتوقعه طبيعته الشرقية وتربيته الدينية التي تحفظ المرأة بعيداً عن عنف الخلافات.

لم تجد طلبات المعتقلين قبولاً ولا استجابة من أفراد الأمن سوى المزيد من الركل والصفع، ووابل مضاعف من ألفاظ الفحش والشتم والتعنيف، ولذا قرر أن يتجنب وضع نفسه في هكذا الموقف؛ مما أدخله في سكون كامل وغلفه صمت تام، وسبح في أمواج ليل مقيم، فما من شيء يخفف حدة الظلام الجارحة في هذا الدهليز الخانق فلا مسرب للهواء فيه. ليل ليس مثل الليل، فالليل يهبط وينزل وهنا ساكن لا يتحرك، الليل يسير بين سماء وأرض ويلمع فيه قمر وترصعه نجوم، وهذا الليل ظلام محض. نجح في تجنب غضب الحرس الذين ما فتأوا يروحون ويجيئون طوال الوقت في الدهليز المظلم البارد، وقد تكدس فيه المعتقلون مقيدين إلى ماسورة معدنية تمتد على طوله. ما كان يثير استغرابه، إن بعضهم لم يتوقف عن التماس العون والمساعدة من جلاديهم، بل كان يبدي استعداداً لأن يكون محل سخرية، بسرد نكتة وأحياناً الرقص والغناء، بغية نيل بغيته التافهة، وليته يحظى بها. كم كانت تصرفاتهم سخيفة، خصوصاً عندما توضع بموازاة عواقبها الوخيمة. وكم بلغ أصحابها من اليأس والشعور بالعدم والخواء عندما يرجون خيراً ويأملون عاطفة إنسانية من أفراد أمن صارمين، مرضى بالخبث مملوئين بالحقد، سريعي الغضب غزيري الشراسة، لا يحتملون طلباً، ولا يرضون عن تدله ولا تملق. لم يجن المتملقون لهم سوى أن يرجع أحدهم إلى

مأواه منكمشاً في جوار الماسورة المعدنية الطويلة مقيداً، لا يأتي حراكًا ولا يتكلم إلّا في سره حتى يغلبه النوم أو توقظه ركلة. لِمَ يبدون التملق لهؤلاء القساة، ثم يتسربلون الانكماش بجبن بعد أن يضعوا لتوسلاتهم حداً، بإذاقتهم كوماً من الإهانات وسيلاً من السخرية والاستهزاء، وما لا يحصى من البصاق والصفعات؟ هل لأن أكثر الأمور اعتيادية وما يخاله الإنسان في وضعه الطبيعي تفاهة، يصبح في الظروف غير الاعتيادية أمراً معتبراً، بل أسمى ما يرغب في الدنيا؟

غرق في دوامة أسئلة مؤرقة عن مفردات عالمه الجديد، ومنها مصير شقيقيه مجتبى وطه، ربما يجلسان وينامان معه في هذا الممر، أو إنهما يتلويان تحت السياط. مع كل زعيق حارس أو صوت هراوة تنزل على معتقل ما، كانت صورهم تتحرك أمامه كالأشباح. انصب تفكيره بالخصوص على شقيقه الأصغر طه، فقد كان ذا عاطفة متوهجة وأحاسيس مرهفة، لا يألف البعد عن بيت والديه، ويؤذيه بكاء طفل وتؤرقه زفرة مهموم، فكيف به الآن وهو في باطن أرض مفعمة برائحة بشر افرغوا من إنسانيتهم، وتحيطه الآهات من كل صوب، وتمزق أذنيه الصرخات، ويؤرقه أنين المتوجعين؟ بعد يومين، مر حارس أمن لإعادة تدوين أسماء المعتقلين وعناوين سكنهم، ومنها علم بوجود طه قربه، يفصله عنه جوار معتقلين اثنين فقط. تجنب الحديث مع طه بعد أن التفت الحارس إلى صلة القرابة بينهما من الأسماء، بل سألهما عنها. فأي حديث كان سوف يجر يد غليظة تهوي على عنقه، وتغير اتجاهاته

بعنف، بدلا من ذلك أصاخ بسمعه للفتاة، وهي ترد على أسئلة الحارس، حفظ اسمها الكامل وعنوانها بدقة، ولم يكن ذلك عسيراً عليه فإنها تسكن الحي نفسه الذي يعيش فيه. ومن السهل عليه بعد أن يطلق سراحه قريباً، أن يذهب لأهلها ويخبرهم عن حالها وظرف اعتقالها. كان واثقاً إلى حد لا يصدق بأن اعتقاله لن يستمر، وأن هذا الكابوس المزعج سوف ينتهي قريباً، فهو لم يفعل شيئاً يستحق العقاب عليه. ومع أن الأمن كانوا يضربون المعتقلين لأتفه سبب، إلّا انه لم يتوقف عن التفاؤل، ولا حتى سأل نفسه لماذا يعتقد جازماً أن هذه الفتاة سوف تبقى في المعتقل، وهو الذي سيخرج؟ مع أن صورة الملفوف في بطانية لم تبرح ذاكرته يوماً، ورغم القصص التي سمعها من قبل عن التعذيب، فإنه لم يكن يتخيل إن العالم يملك هذا المقدار الهائل من التوحش والبربرية. ومع ذلك ما برح يواصل النظر إلى العالم من خلال البراءة المقيمة في داخله، لا من حقيقة الواقع الخبيث الذي يحيطه.

اتخذ من طيبته التي لم تصنعها بيئته ولا ظروفه التي عاشها، بل ورثها من أبيه، موقفاً دفاعياً في مواجهة قسوة الواقع ومخاوفه بلا وعي منه، وصار بها يقاوم الأشياء المزعجة التي أزاحت حجاب الزيف عن الواقع المعيب. كان لا يريد أن يعرف أي شيء، ولا أن يصدق نفسيات وسلوكيات الأشخاص الذين بات عليه التعامل معهم. وباتت طيبته طوق نجاة نفسي، تشبث به للخلاص من المأزق الذي وقع فيه، ولا يعرف سبيلاً للخلاص منه سوى تعميق اطمئنانه الداخلي، أو الارتكاز على

تبرير موهوم بأنه لم يرتكب خطأً، وأن السلطة تعاقب المخطئين فقط. ما بين الطيبة والسذاجة شعرة فاصلة، فالطيبة تخرج من نبع العطف وأصلها الود والتراحم ومحلها صفاء القلب، وتلازم صاحبها شيمة الاحتفاظ بالكرامة، وبالضد من ذلك فإن السذاجة تفتقد كثير من سمات الطيبة إن لم تكن كلها.

يجتمع بالطيبة التعقل والتروي قبل أي تصرف يصدر من صاحبها، لذا كان هو يتصرف عن وعي وبعقل وحكمة، فلا يصدر صوتاً يثير انتباهاً، ولا يفعل ما يلفت به نظر أحد، مع أنه كان يسأل نفسه أحياناً، وهو يرى الجنون يعبث بعالمه الجديد، هل من جدوى للعقل في هذا المدفن السري؟ مع ذلك فإن التزامه الصمت والهدوء لم يحرمه من شيء تمتع به آخرون بسبب وهنهم وتهورهم، بل العكس هو الذي حصل.

- هل تريد الذهاب إلى الحمام؟ سأله عنصر امن

- نعم

لم يحدس نية صاحب الصوت؛ فدخل في دوامة أسئلة، وصار يحدث نفسه بلا انقطاع، حتى عندما تهوم عيناه، كانت شفتاه تتمتم بأشياء غير مفهومة يحسبها السامع هذياناً، ولكنها كانت حواراً داخلياً لا يهدأ. هل ما حصل عوناً شخصياً له من هذا الحارس المجهول، أم إنه مجرد أمر روتيني يؤديه كجزء من واجبات الحراسة؟ ولكن لماذا استفهم عن حاجته هو دون غيره؟ إذا كان الأمر روتينياً فلماذا بدأ به أولاً، مع أنه ليس في أول الممر ولا في آخره؟ واقعة أدهشته، تملكه

شعور راسخ، بأن السماء تكافئه، وتحيطه برعايتها الخارقة، لأنه لم يفرط بكرامته. كرامته هي كل ما تبقى له في هذا المكان، وعليه بذل وسعه وغاية جهده لصيانتها، لأنه بالحفاظ عليها سوف يبقى إنساناً ولا يتحول إلى شيء آخر بالٍ عديم النفع والفائدة، وأن السماء التي قدمت له هذه الهدية الآن ثمناً للقوة التي أظهرها في مواجهة الإذلال، إنما في الحقيقة أعطته إشارة ليواصل المقاومة والثبات، وأنها سوف تجترح المعجزات لتنقذه من هذا المأزق المر، أما غيره سوف يدفع ثمن ضعفه بالاستصغار والازدراء، وبإهمال السماء له، لكنه ما يلبث أن يستدرك غضبه عليهم، ليقول وما الذي يجعلني مشغولاً إلى هذا الحد بالحكم عليهم؟ هم ضعفوا وانهاروا تحت التعذيب واستسلموا للموت قبل أن تموت أجسادهم فعلاً، فلماذا أكون قاسياً عليهم، وهل من المروءة التمثيل بميت؟

بسبب موافقته على الذهاب إلى الحمام الذي كان بأشد الحاجة له، حظي جميع من كان في الممر من المعتقلين بفرصة مماثلة لمراجعة دورة المياه، وبلغ به الاطمئنان والاستقرار، أنه غسل يديه بالصابون وهو يخرج من المرحاض، مما أثار استغراب وتهكم الحرس. موقف مماثل تكرر لاحقاً، فقد استبد به العطش يوماً بعد حفلة تعذيب استمرت لساعتين تقريباً، لم يكن قادراً بعدها على استعمال يديه المشلولتين جراء التعذيب، فجاءه أحد الحرس بجردل ماء وعرضه عليه دون أن يطلبه، ولما أظهر له أنه عاجز عن الشرب، أمر الحارس أحد المعتقلين

بسقيه. الحادثتان عززت لديه شعوراً جارفاً بأن الله يقف معه، وان الأمور ستنتهي إلى خير، رغم ما كابده من ألم وعناء في الأيام الثلاثة الأولى من الاعتقال. بل في الساعتين الأوليتين، إذ حصل أمام عينيه المعصوبتين بشريط أسود وأذنيه المفتوحتين حادث صادم مفزع مرعب.

لم يكن قد التقط أنفاسه بعد، ولا استجمع شتات أفكاره، مكبل اليدين، معصوب العينين، حائراً، تائهاً في عتمة الموقف وظلمة المستقبل القريب، إلّا وصوت أحذية عسكرية تعدو بالقرب منه وحواليه، كأنها حوافر خيل جامحة، وجلبة أصوات يتطاير الشرر منها، وهرج ومرج يعصفان بالفضاء المزدحم. لقد هرب، أين ذهب؟ كيف هرب؟ امسكوه ابن ال....![4]. دقائقٌ مرت مثل إعصار جامح أو ثورة بركان هائج، وفي ختامها أعيد اعتقال الهارب، ثم حل صمت رهيب. خفتت الأصوات، ولم يعد يسمع همساً ولا ركزاً، مع وقع حذاء جلدي يضرب بلاط الممر بانتظام معلناً حضور ضابط برتبة عالية. سأل الضابط المعتقل الهارب بهدوء غريب ولا مبالاة، لماذا هربت؟ لم يستطع المعتقل الرد ولا بحرف واحد، ويبدو أنه لم يكن أحد بحاجة لجوابه في وسط السكون الثقيل الذي ملأ الفضاء الضيق، وصار بمقدور كل واحد حينها أن يكون مثل سليمان النبي يسمع دبيب النمل وحواره،

4ـ شتيمة

وصوت أنفاسه تعلو وتهبط مهما بالغ في حبسها. بالكاد التقطت إذنا سجاد كلمة واحدة، خرجت من فم الضابط وهي تنساب بهدوء عجيب، ولا تحتوي على ذرة انفعال واحدة: اقتلوه! لم يفهم ما المقصود منها، أو بالأحرى أنه لم يرد أن يفهم. ضربات سريعة متلاحقة أسرع من تأوه وأنين المعتقل الهارب، ثم صوت صرخة متمادية الأبعاد اخترقت كل الحواجز، تلتها شهقة كأنها كرة جلدية تنفخ هواءً محبوساً فيها، ثم اختفى صوته ونشيجه.

- انتهى
- مات

حوار مقتضب بين أفراد الأمن، تبعه صوت جسد يسحل خارجاً بصمت وبلا مقاومة. رفض أن يصدق أن الشاب مات، ولكن عند الغروب نادى هتلر (اسم حارس أمن) زميله أبا غضب[5]: هل تريد عشاءً؟ فأجابه بقهقهة وسخرية لاذعة: لا، لقد تعشيت بهذا ال......[6]

انتابه خوف وفزع رهيبان، هل يمكن له أن يموت هو الآخر هكذا؟ وهل يملك الإنسان كل هذه الفظاظة والوحشية في الانقضاض على أخيه الإنسان وافتراسه، ومن أين جاء بها؟ ولكن مهلاً من قال، أنه قد مات؟ ألا يمكن أن يكون لم يزل حياً؟ ولكنه مات، سمعته يشهق ويموت،

5ـ أسماء مستعارة يستعملها أفراد الأمن لإدخال الرعب في قلوب المعتقلين.

6ـ شتيمة

وهذا أبو غضب ألم يقل إنه تعشى به. لكن الضابط لم يكن غاضباً ولا منفعلاً، ربما كان منزعجاً، ولكنه كان هادئاً، حتى إنه لم يتفوه إلّا بثلاث كلمات فقط بالعدد الحرفي لها "لماذا هربت؟ اقتلوه"، لماذا قال لهم اقتلوه، هل يمكن أنهم فهموا الأمر بالخطأ، أو انه قصد أن يضربوه أو يؤدبوه حتى لا يكرر الهروب ثانية؟ لكن كيف لم يفهموا ما قال؟ إنه لم يكن قد ابتعد كثيراً حين سمع أنفاسه الأخيرة وهم يقتلوه، لو لم يقصد هذا، لقال لهم كفى ضرباً، إنه يوشك أن يموت، أين الحقيقة؟ هل في هذا العالم السريالي وجود للحقيقة؟ وهل توجد أصلاً حقيقة، أم إن كل شيء وهم وخيال؟ اضطرب بشدة وارتجف داخله بعنف، واهتزت الصور البريئة التي طبعها في ذهنه لثمانية عشر عاماً، وتطاير ما في داخله كأنما ضربه إعصار أسرع من الصوت، وصار يقتلعها واحدة تلو الأخرى، كلما أراد الاحتماء بها، كأنها سقوف أكواخ ضعيفة واهنة، لا تحمي أجساد الفقراء والمستضعفين المشردين.

تدور في رأسه الأفكار، وتختلط به المشاعر رفضاً لتصديق الواقعة، لأنه لا يريد أن يموت. كان مؤمناً بأنه سوف يخرج سالماً من هذا القبو المظلم، لأنه لم يفعل شيئاً يستوجب العقاب، ولا يمكن أن يكون العبث يتحكم بمجرى الأحداث، ولا أن يسير هذا الكون هكذا بلا شريعة ولا ناموس أخلاق ولا قانون. غمره شعور بانعدام الحقيقة تسرب لكل مناحي ذاته ومفاصل كيانه وأصابه بالحيرة والشك، ولم يعد يستطيع

الحكم على أيهما غير حقيقي: الصورة في داخله التي لا تقبل الموت بهذه الوحشية أم صورة الواقع الذي حصل للتو؟.

يومان كئيبان وليلتان ثقيلتان انقضيا قبل أن يحين دور التحقيق معه، عاش فيها طقوس التشاؤم. مرق أمام عينيه مشهد صديق له قبيل اعتقاله بيوم واحد فقط، اقترب منه بشدة وعانقه بحرارة محتضناً إياه، وهو يقول له: عزيزي سجاد، أشعر بالقلق عليك، لأني رأيتك اعمى في رؤيا مرت علي بسرعة الليلة الفائتة، وأخشى أن يصيبك مكروه. هل هذه العصابة السوداء والظلمة الحالكة هي تعبير رؤياه، ولماذا قبل كل أسر وسجن ومسيرة عذاب طويلة لابد من رؤيا؟ هل بدأت الانزلاق إلى جب يوسف؟ لا تفرح فما صار بعدها ملكاً، إلا لأنه كان نبياً، أما أنا مصيري أن تأكل الطير من رأسي؟ خوفٌ ملأ قلبه، وهو يسمع أصواتَ التعذيب والصراخ تتناهى إليه من غرفة تحقيق ليست ببعيدة، واختلطت الأمور في رأسه وتشوش ذهنه، فما عاد يميز بين الرجاء والقنوط وبين الأمل واليأس، ولا بين الخيال والواقع. ينتابه شعور واطمئنان بالمغادرة في ساعة، ويغزوه خوف وفزع من المستقبل ساعة أخرى. غدا مثل كثبان صحراء تعصف برمالها رياح عاتية لا يستقر لها محيا ولا يعرف لها مظهر.

جمعٌ غفير يقف في ممر بارد تطغي عليه رائحة المعقمات والمطهرات، وكل ينتظر دوره ليدخل غرفة صغيرة، ومن هناك تخرج صرخات وجع وألم، تفطر القلب أحياناً وتملأ الممر ضجيجاً. لم تلق

اعتراض أحد، ولا يقاومها حتى من كان يتوجع منها، لأنها ضربات طبيب تمنح المريض الحياة، وتعيد له الأمل بالعودة سالماً، وقد استعاد عافيته وامتلك جسده من جديد، ليحيا به كما يفعل الآخرون غيره. الجمع هنا أيضاً ينتظر الدخول إلى الغرفة منفرداً، ولكن بانتظار تلقي ضربات ليست كتلك. هذه ضربات لا تخلق الوجع وتزرع الألم وحسب، بل أنها تعدم الآمال، وتنهي الأحلام، وقد تسلب الحياة، وتزهق الأرواح. الانتظار هنا أو هناك يجمعهما قاسم واحد وهو القلق، ولكن يفرقهما الكثير، فهنا انتظار في دهليز بارد مظلم خانق، عفن الرائحة، مثقل بالفزع والرعب، بانتظار نقمة وعذاب لا رحمة ولا حياة.

في نهار اليوم الثالث، نودي عليه وأخذ إلى غرفة التحقيق وبدأ المحقق باستجوابه، وهو يرد باقتضاب. أصابته الدهشة، ولم يعرف هو نفسه لماذا كان يتصرف بهذه الطريقة في التحقيق؟ لا يذكر أنه تعلمها من أحد من قبل، ولكن موهبة المرء تخرج في الامتحانات العسيرة، ومن رحم المعاناة يولد الإبداع، والاجتهاد يذلل المشاق والصعوبات؛ وعليه أدرك أنه من اللازم أن يكون شحيحاً بأي معلومة يقدمها، حتى لا تستغل ضده. وأن يواجه ادعاء الضابط المحقق بأن شقيقه "مجتبى" قد اعترف عليه، بالإنكار والتجاهل. هذا الجواب لم يرق لزمرة أحاطته بلهاثها؛ فبادرته مستهجنة إنكاره، كفٌ غليظة أنزلت عليه صفعةً مدوية أذهلته، وأفقدته الصواب، ولم ينتبه منها إلّا بعد أن حلت به مفاجأة صاعقة، إذ وجد جسده معلقاً في السقف بقيدٍ شبك ذراعيه من الخلف،

وقد تلقفته أيدي الجلادين تذيقه من العذاب فنوناً بهراوات غليظة وكهرباء هزت جسده وهي تلامس أماكن حساسة، بعد أن كان قد جرد من البيجاما واللباس القطني الطويل الذي يرتديه تحتها، ومن البلوز الأزرق الذي سحبوا منه حبلاً يتدلى من قلنسوة الرأس، في أول ساعة اعتقاله، خشية أن يستعمله كحبل للانتحار. وبالسرعة ذاتها فقد سرواله الداخلي القصير، ولم يعرف أصلاً ولا حتى درى كيف نزعت منه الفانيلا، وهو معلق في السقف والقيد يجمع ذراعيه، وظل متحيراً يستفهم بتعجب، كيف خرج جسده منها، وهل مزقت، وهو لم يشعر بها؟ سؤال لم ينشغل به كثيراً، مع أنه كان مثار تعجبه كما أدهشته سرعة خطفه إلى السقف. فقد سائر ملابسه بالكامل، ولم يسترد منها شيئاً حتى بعد انتهاء التحقيق سوى البيجاما. بعد ذلك صادف سرواله القطني الطويل مع معتقل آخر في زنزانة جمعتهما في طابق سفلي، إذ إن الجلادين كانوا يُلْبِسون من ينتهي التحقيق معه أي شيء تقع عيونهم عليه من بقايا الأسمال المبعثرة في غرفة التعذيب بلا تمحيص، بقايا تثير الشفقة ويأبى حتى المتسولون أن يمدوا إليها أيديهم لو كانت في العالم خارج السجن، ولربما أحرقوها لأنها مشبعة برائحة كرائحة الفطائس، أما في السجن فإنها أثمن من أغلى الماركات، وازهى من ملابس العيد الجديدة في عيون طفل نام باكراً، وهو يحلم بارتدائها.

الكهرباء تصعق الثديين والكتفين وما بين الإليتين والساقين، تخض جسده النحيل، يرتجف، يتقلص متشنجاً، يرتعش بحركة سريعة

لا إرادية، يوشك أن ينقطع نفسه ويتوقف قلبه، يسحب إلى رئتيه الأنفاس ليتيقن أنه لم يزل على قيد الحياة، لكنه يشعر بأنفاسه ساخنة كأنها تخرج من تحت مكوى. اشتعل كتفاه من الألم من جراء التعليق في سقف غرفة التعذيب، ثم خُلِعَا وفقد الإحساس بهما. أحس براحة تبلغ حد الاسترخاء والنشوة، فقد بدأ يتدرع بالألم في مواجهة التعذيب. ترك جسده للجلادين يفعلون به ما شاءوا، وانصرف بكليته يركز تفكيره تارة في الإجابة عن أسئلتهم المستقبلية المتوقعة، وتارة أخرى أكثر من الأولى يستذكر آيات قرآنية كأنما يؤدي بتلاوتها الصامتة صلاة وداع للحياة، وتمر أمامه في الوقت عينه عذابات الحسين في كربلاء. هدأ روعه وتلاشى التشويش الذي غزاه، وبدأت أفكاره تصفو وتتخلص من الشوائب والكدر، ولكن أوصاله كانت مستمرة في الارتجاف والارتعاد بقوة.

بعد زمن ليس بالقليل، بعد أن ضمن الجلاد إن العذاب قد انتشر في سائر جسمه، ولم يغفل عضواً فيه وغطى سائر جسده، ونال من كل بوصة في جلده وسرى في كل ثنية فيه؛ أدخل مجتبى في غرفة العمليات[7] لإيهامه بأنه قد اعترف عليه. سأل المحقق مجتبى سؤالاً واحداً فقط، هل هذا أخوك؟ أجابه بنعم، وأُخْرج على الفور. تيقن حينئذ "سجاد"، أن شقيقه لم يقدم إقراراً لعناصر الأمن، فواصل هو الآخر مسيرة الإنكار

7ـ يطلقون هذا الاسم على غرفة التعذيب

بإصرار. بدأ الجلادون بعدها باتباع تكتيك جديد، فصاروا يسألونه عن أسماء أصدقائه، استدراجاً له لعلهم يظفروا بمعلومة غائبة عن المزيد من الشباب الملتزم دينياً واعتقالهم، لكنه انتبه للحيلة، فصار يذكر لهم أسماء أولاد عوائل معروفة بانتمائها لحزب البعث، لدرء الخطر عن رفاقه من جهة، ومنعاً لمزيد من شبهة العلاقة مع الطلبة المتدينين من جهة أخرى. أنزلوه من السقف وربطوا قدميه بالفلقة، وانهالوا عليهما ضرباً في حفلة تعذيب استغرقت زهاء الساعتين، خرج بعدها متورم القدمين، عاجزاً عن المشي، مشلول اليدين، لا يقدر حتى على ارتداء ملابسه، مما دفع جلاديه لأن يلبسوه بأيديهم بيجامته حين انتهوا من التحقيق معه.

9

نهاية حفلة التعذيب لم تحصل إلّا بعد أن دخل زميله في المدرسة "زياد" لغرفة التعذيب برفقة حارس، وأدلى بشهادة كشفت سر العلاقة بينهم، بأنه قد تسلم من سجاد مبلغ خمسة دنانير لمساعدة عوائل المعتقلين والمعدومين. بعد لحظات من صمت ثقيل مطبق ومستهجن من الجلادين، أقر أنه لم يكن اعترافاً كاذباً ولا افتراءً، واستسلم للاتهام بتقديم المساعدة لعوائل المعارضين المتضررة من قسوة السلطة وبطشها. في الواقع، هذا المبلغ كان أقل بكثير من المبلغ الحقيقي الذي بذله لتلك العوائل، ومع ذلك فقد استعظم رائد عامر المحقق الرئيس في مديرية الأمن العام هذا المبلغ، وقال له: أيها الملعون _ وأضاف إليها مجموعة شتائم أخرى بلغة فاحشة _ نحن ندفع مائة فلس اشتراك في حزب البعث، وأنت تدفع خمسة دنانير. عبارة لم يفهم عمق دلالتها، ولا أدرك مغزاها ومآلها، وخال أن الحديث يدور عن حجم المبلغ، بسبب بخل وشح هؤلاء الجلف الحمقى غلاظ الطبع، ولم يدرك إلّا بعد مرور بضعة أشهر في محكمة الثورة وهو يواجه الحاكم العسكري، أن هذا الحديث المقتضب كان تلميحاً لتهمة خطيرة للغاية، لم يتوقعها، ولم يحسب لها أي حساب. فاعترافه بالكرم والعطاء لم يعد من قبل المحقق تطوعاً من فاعل خير، تحدى الحصار الذي تفرضه أجهزة السلطة القمعية الضارية على معارضيها ومن تعلق بهم، بل حُسِبَ اشتراكاً دورياً

وتعبيراً عن الانتماء لحزب معارض خائن عميل لبلد أجنبي، والبلد في حالة حرب معه.

الخور والضعف الذي انتاب زياد وهيمن عليه، تردد صداه بانتفاضة ألم استبدت على سجاد، شعر لأول مرة بأن السقف يدور وأن الأرض تموج تحت قدميه. احتقن الدم في عروقه، وأستحال إلى قطعة بنفسجية. بركان يغلي في داخله، وفورة هائجة من استفهامات معذبة تمزق كيانه بأجوبتها التائهة التي لا تعرف سبيلاً للخلاص من حيرتها القاتلة. ما الذي سوف يجنيه زياد من هذا الاعتراف؟ لا شيء، بل أنه يعلم أنه رتب على نفسه قبل غيره ممن شهد ضده عواقب وخيمة. صحيح أيضاً، أن هذا التعذيب يلحق ضرراً جسدياً بالغاً وأذىً نفسياً شاقاً، ولكن هل كان عليه أن يخفف الضرر عن نفسه لو أراد النجاة من العذاب، بأن يتطوع للشهادة ضد رفاقه ويسوقهم إلى موت محتم؟ لو كان مضطراً بالفعل كما يدعى، وضعف لمرة واحدة، فما الذي جعل من الإكراه عادة له؟ وكيف صار مسوغاً دائماً له لمزيد من الانهيار أمام الجلادين؟ ألا يرى كم ألحق من الألم بكثير من رفاقه، بل كيف صار يقدم اعترافات كاذبة طالت آخرين لا علاقة لهم بأي نشاط سياسي أو ديني، وبعيدين عنه بعد المشرق عن المغرب، وسمعوا به للمرة الأولى حين وقف أمامهم يدلي بشهادته الزائفة.

لا شيء يدفع إلى الاعتراف سوى الخوف، ولا يفسر بغير الأنانية وحب الذات، وهما أمران لا يجتمعان مع العامل في سبيل إعلاء كلمة

الدين، لربما لو كان في نشاط سياسي آخر غير ديني لأمكن تبرير ذلك نوعاً ما، مع أنه يبقى مرفوضاً؛ فليس من حق من يتصدى لمقاومة الظلم أن يرتكب الظلم. عندما يرهن نفسه للسلطات فلن يقال عنه أقل من خائن، ولن ينظر في وجهه أحد ولن يقدر على رفع رأسه، إن بقي عنده حياء المؤمن أو كرامة الثوار. مات زياد من تلك اللحظة، ولم يعد موجوداً بنظر أحد وربما حتى بنظره هو نفسه. إن أكبر قوة لا يمكنها أن ترغم أحداً على الاعتراف، فاذا ما امتلك الإرادة، وقرر أن لا يعترف فلن يعترف أبداً، أما التعذيب فهو صدمة الساعة الأولى فقط، وبعدها يصبح أمراً عادياً، بل يصبح الألم درعاً ووقاية. فالأنسان مثل حبات المسبحة، إذا كان الخيط الذي يجمع الخرزات قوياً سوف يبقى متماسكاً، أما إذا افرط الخيط فسوف تتبعثر كل الخرزات، ولن يقدر على الاحتفاظ باي منها. كما أن ضرب الهراوات لا يغير الانسان ويجعله خائناً، بل بالعكس يجعل منه عدواً لجلاده، وتزداد عداوته مع كل سوط ينزل عليه وصفعة يتلقاها منه.

ما خفف من وقع اعتراف زياد عليه، إقراره الداخلي أنه بالفعل قد قام بهذا العمل، وأنه قد خط مستقبله بنفسه، ورسم طريقه بإرادته، وأن الأمور إذا سارت بطريقة خاطئة في منعطف معين ومنعرج ما، فعليه أن يتحمل نتائجها وعواقبها، لا أن يهرب منها، ولا أن يلقي باللائمة على غيره، حتى وإن كان هذا الغير لم يحفظ الوديعة التي اؤتمن عليها، ولم يرع العهد المتفق على حفظه ورعايته، ولم يلتزم بميثاق غليظ تعاهد

عليه رفاق النضال بوضع أسرار العمل في خانة مقفلة لا تفتح إلا عند الموت. مع مرور الوقت تضاءلت الضغينة في صدره نحو "زياد"، وخلا من كل حقدٍ تجاهه، لكنه ظل يبغض فعله أشد البغض، وطالما حلم بأن يعود الزمن إلى الخلف، ويراه قوياً كما كان يظنه، ولا يفعل هذه القبائح، لأنه كان يراه مؤمناً. فطالما اعتقد بانه لا ينبغي أن تخور عزيمة المؤمن، ولا أن يدب إلى قلبه اليأس إزاء الظروف الشائكة مهما بلغت مشقتها وعظمت مصاعبها، إن كانت من صنعه أو من أخطاء غيره.

هذا الحوار الداخلي حين كان يخرج إلى العلن، يعد في الحال تفلسفاً زائداً ومثاليات لا واقع لها عند آخرين كثر من ضحايا اعترافات زياد، وظلوا رغم مرور السنين الطوال حتى بعد اطلاق سراحهم، يذكرونه بمرارة وأسف وبلا تسامح، لأن ما قام به كان بنظرهم عملاً جمع بين الخيانة والجبن والأنانية، ولا يمكن قبول أي مبرر له. ولكن هل كان سجاد بالفعل قد تجاوز المسألة برمتها؟ أبداً، فقد تملكه الحزن، ولبسه الهم وأصابه الغم، لدخول فتيات في عمر الزهور معهم إلى المعتقل، حكايتهن فيه قصة فريدة من نوعها، وثقيلة لا تحتملها أشد التعابير وأقوى الكلمات. كان لكل واحدة منهن حياة مختلفة قبل أن يلجن في عالم الظلمات، إنما يجمعهن قاسم مشترك وهو العفة والالتزام الديني والثقافة. وهذا ما كان يجعل أشرف الرجال وأرفعهم مقاماً واسماهم منزلة، يلتمس منهن لفتة، أو نظرة عطف واحدة، واليوم صرن بين أراذل الناس يتبخترون فوق رؤوسهن بأزيائهم العسكرية. وأمسين يتسربلن

بأردية متسخة اخشوشنت من قذارة الزنزانات وعفنها، فيما كنّ قبيل أيام قليلة يلبسن خير الملابس، إلا أنهن ما فتئن يتجللن بخير ما يتزينّ به المرء ألا هو لباس العفة. توارت من وجوههن النضارة وحل محلها التعب والشحوب، والإعياء والنحول، ومن يرى حالهن يجمعهن دهليز مظلم بارد في حال من التيه والضياع يتملكه السخط والحزن، وهو يرى جلبة الشقاء وضجيج التعاسة يقرع فوقهن ليل نهار، من فم حقير في غاية النذالة والسفالة، يوجه لهن الإهانة تلو الإهانة، يشتمهن ويحدق فيهن بنظرات فاجرة وقحة، وهنّ مضطرات للاستماع إلى هذا الهراء مستضعفات، مغلوبات على أمرهن، تلبسهن الخوف والحذر من معاملتهن كمجرمات، لا سند يحميهن يكن عوناً لهن ولا ركن يأوين إليه من كائن فاسد ومخلوق تافه يتباهى بقوة سلطته، ويتبختر بها في خيلاء. المتجبر على غيره بقوة وإرهاب سلطته إنما يصدر فعلاً ممجوجاً بحكم فطرة أي بشر، فكيف اذا كان هذا المتجبر عليه امرأة ضعيفة؟ وأنكى وابغض من كل ذلك أن تكون أسيرة سجينة، لا تملك لنفسها أقل وسائل الدفاع واضعفها.

هل من أدلى باعتراف عليهن، وجرهن إلى هذه المعتقلات الرهيبة، ووضعهن في هذا الموقف الصعب الرهيب، يمكن أن يقبل أي اعتذار له؟ وهل تنفع تعليلاته، تارة بزعم التعرض لتعذيب قاس، وأخرى بأنه لم يفتر عليهن كذباً، وأنه ما قال إلّا ما هو واقع حقاً؟ ألا يستحق هو وأمثاله أن يقذف بوابل من سخرية، ولا يُشْعَر نحوه بغير احتقار عميق،

وتقزز باعث على الغثيان يملأ النفس، لا تتمكن الأيام المتتالية والسنوات المتعاقبة أن تخفف من مرارته، فكيف بمن عاش أيام صعبة وظروف سوداء مع فعله المشين في زنزانات يخيم عليها ظل ثقيل من الحزن والعتمة الدائمة، وحالهن يستصرخ الضمائر الحية، وأنى للضبع قلب الحمل الوديع؟ كم كان صعباً عليهن بعد ذلك أن يسمعن مقولة تجترها الأفواه كأنها زاد يومي، بأن المرأة تسير بقلبها قبل عقلها؟ أليس حري بمن يزعم انه يستخدم عقله قبل قلبه وحكمته قبل عاطفته، أن يوقظ شهامته، وبدلاً من إن يكدسهن في هذا الوضع المزري المتعب البائس، أن يهبهن الأمان والاستقرار؟ كرامة المرأة تحفظ في قوة الرجل، والمؤشر الحقيقي على الرجولة والشهامة، والدليل الناصع على الأنفة والكبرياء يسفر عنه حفظ كرامة النساء، أما لو حصل العكس؛ فهل يفعل ذلك أحد سوى صاحب الشخصية الضئيلة، القميئة، ومن يغلب عليه الإحساس بالدونية. وهل يستحق سوى الاشمئزاز المستدام.

قوتهن وكرامتهن ما عادت من قوة الرجل الذي كن يحتمين به ويتبعنه على انه الرائد والقائد، بل باتت من قوة الموقف الذي ألمّ بهن وحاصرهن، وصرن أقوى من الصخور يقفن وحدهن بمواجهة حصار من ضباع مفترسة تتربص الفرص لنهشهنّ. قالت إحداهن لرئيس محكمة الثورة وهو يسألها عن اعتراف مدون بإمضائها على ورقة أمامه: قضيت عمري كله في الدراسة، ودرجاتي الجامعية تشهد لي حتى وصلت إلى درجة الماجستير، احضرها وسوف ترى كم مادة حصلت فيها على درجة

الامتياز. في أثناء التحقيق علقت مقيدة من الخلف بالسقف ست عشرة مرة، وكنت أُضرب و أُجلد يومياً بما لا يحصى من المرات وأتحمل من الشتائم أكثر من عدد الكلمات التي سمعتها طوال حياتي، كل ذلك حصل حتى أوقع على هذه الورقة التي ترفعها أنت الآن بيدك، وتلوح لي بها، كأنها الدليل القاطع والبرهان الحاسم على جرمي وخطيئتي وذنبي. هل تتوقع مني أنا الطالبة المنهمكة في دروسها والمدرسة الجامعية المنشغلة في أروقة أقسام الدراسة بإعداد المحاضرات التي لم تر شرطياً من قبل ولا كلمته، وأنا المرأة مع ضعف جسدي، أن أتحمل كل هذا، وأن لا أمضي على هذه الورقة لأتخلص من هذا العذاب؟ وحتى فرصة إنكارها أمامك، صارت سبّةً عليّ، لا تصلح أن تكون لي عذراً ولا سبباً للرأفة بي. كلماتها البليغة المؤثرة التي تصدع القلب وتهز الوجدان وتوقظ الضمير، لم يكن صداها عند رئيس محكمة الثورة سليم الجبوري سوى مفردة اخرسي بالطريقة العراقية[8]، وأنزل عليها وعلى رفيقاتها الأربع، اللاتي كن معها، حكم السجن المؤبد.

حال من الشقاء والبؤس تنفطر له الأفئدة، وتنكسر له القلوب حزناً وألماً؛ لما أصابهن من الأذى، والهوان باد على الأجساد النحيفة والوجوه

8- إنچبي

الهزيلة من أثر الجوع، والأحكام القاسية تنزل على شباب من الجنسين. النظرات تدور في أرجاء القفص بحثاً عن الذي اعترف عليهن، وسجاد يقف مذهولاً وعيناه اغرورقتا بالدموع، يوشك أن ينخرط في نوبة بكاءٍ هستيري، ولو تخلى قليلاً عن خوفه وضعفه في تلك اللحظة الأقسى من أصلب الصخور، لأرسل كومة هائلة من السباب والشتم على كل شيء حوله. تساءل بمرارة، ماذا عليه أن يفعل الآن؟ هل ينتظر رحمة تنزل عليهن من هذه الضواري الجائعة؟ أو يأمل رأفة من وحوش تستلذ بنهش لحومهن؟ فيما هو يتفرج، وهو أسير قيدٍ لا يجد منه خلاصاً ولا منفذاً. ملأ الغيظ قلبه، واحمرَّ وجهه حنقاً، وانشغل عن كل شيءٍ حوله، عن مستقبله، وحتى عن مصير شقيقه الذي حكم عليه بالإعدام شنقاً حتى الموت، منظر النساء السبايا الذي كان يبكيه في المجالس الحسينية تجسد أمامه حينئذ، وظل يقلق يقظته، ويقض مضجعه، ويؤرق جفنيه، وينغص عيشه أبداً. وعندما انتبه بعد قليل إلى انه يجري فرزهم حسب الأحكام بين السجن والإعدام كانت يداه قد قيدتا إلى الخلف. رأى مجتبى للمرة الأخيرة يساق من باب آخر في طريق المقصلة، وهو ملقى على الأرض عاجز على تحريك كفيه؛ فاستيقظت فيه صورة العباس قطيع الكفين، وهو يرى أخاه الحسين الشهيد ينحر، والنساء تسبى، بينما هو ملقى على الغبراء بلا زندين يعجز عن درأ الخطر عنهم، فما عاد يملك إلا أن ينشد

يا نَفْسُ من بعدِ الحسينِ هُوني   وبعدَهُ لاَ كُنْتِ أنْ تَكوني

يا نَفْسُ من بعدِ الحسينِ هُوني   وبعدَهُ لاَ كُنْتِ أنْ تَكوني

10

هل انتهيت من كابوس التعذيب، ومن النوم مقيداً معصوب العينين في هذا الدهليز البارد المظلم المشبع بالرطوبة والعفن وبرائحة الخوف الثقيلة؟ بهذا كان يحدث نفسه وهو يقاد من قبل أحد الحراس، الذين لا يمكن تمييزهم، فهم على طينة واحدة. رجال أفظاظ غلاظ لا يخالجهم الندم على أي قبيح يرتكبونه، ولا يساورهم الخجل من أي قول فاحش يطلقونه. فجرة مستهترون بما للكلمة من معنى، متأهبون في كل لحظة لانزال الأذى بالمعتقلين بلا هوادة، بسبب ومن غير سبب. من يراهم يحسب أن الكلام البذيء زادهم اليومي الذي يقيمون أودهم به ، وكأنهم يستنشقون الكراهية والبغض بدلاً من الأوكسجين حتى يواصلوا العيش. وهل يلام المرء لو قال: أن الشر المطلق تجسد بهم؟ كانوا لا يتلذذون في انزال العذاب بالمعتقلين وحسب، بل كأنما التوحش هو الخمرة التي بها يسكرون وينتشون. وعلى الرغم من هذا، فقد كان سجاد متحفزاً تملأه الحماسة لمرافقة عنصر الأمن في تلك اللحظة، ليس لأنه كان يأمل كثيراً بأن يجد راحة في الزنزانة رقم 7، التي سوف يحل فيها لأربعة أشهر، بل لأن كآبة ثقيلة استبدت به، وعتمة قاتمة سكنته، وهو يرى حياته قد باتت رحلة مضنية بين هذا الدهليز وغرفة التعذيب. وقع نبأ نقله إلى الزنزانة عليه مثل بشارة عظيمة، كأنها

قطرة ندى سقطت على ورقة ذابلة حزينة؛ فبعثت فيها الحياة من جديد بعد نهارٍ طويل أرهقها برطوبته الخانقة وشمسه الحارقة.

حجرة مكتظة لا تزيد مساحتها عن ستة امتار مربعة، ممتلئة برائحة عرق أجساد نزلائها وزفيرهم المتصاعد إلى سقف متشقق متساقط الدهان، ملطخٌ ببقع رطوبة أخذت أشكالاً متداخلة، كأنها خرائط مشوهة خطتها كف ترتجف، فغدت أشبه برؤوس كائنات خرافية انبثقت من بحر الظلمات لتبتلع الحياة، وتعود بعدها إلى وكر خفي، حيث يسكن الشيطان. على أطراف المصباح الوحيد فسحة تخلو من قطرات البخار المتكثف الملتصق بالسقف، يواصل الرشح على رؤوس أكثر من ثلاثين شخصاً نزلوا في تلك الزنزانة بغير إرادتهم، كأنها لوحة مرسومة تقول أن النور وحده من يزيح الظلام ويطرد الشرور. الحشد المتراص تحت المصباح يقف ولا على أجسادهم من شيء، سوى ظلال بعضهم تتراكم واحدة فوق الأخرى وملابس داخلية بالية لا تستر نفسها ولا غيرها، هرأها الاستعمال المتواصل.

طقس ساخن استوطن الزنزانة جراء تزاحم الأجساد، ولم يعد برد الشتاء ولا اعتدال الربيع يعني شيئاً لساكنيها. الجو يفح بالحر، والجدران تبث حمماً، رغم أن الوقت كان ربيعاً، مما جعله يقول ساخراً: إذا كان هذا الربيع، فأي صيف لاهب سوف ينثال علينا قريباً؟ لم تكن الأجساد متزاحمة وحسب، بل كانت متراصة بالمعنى الحرفي للكلمة. تراكم متتالي على مدار الساعة، وإلّا كيف لهذا الجمع أن يحشر في هذه البقعة

الصغيرة، ثم يجد متسعاً للنوم والجلوس؟ كان الوقوف لأربع ساعات متتابعة بلا أدنى فصل مهمة شاقة عسيرة، تورمت معه أقدام المعتقلين، وهي تراوغ أجساد زملائهم المتلاصقة المستلقية على جنوبها، لتحشر نفسها في أي موضع تظفر به بينها. لم يكن يضر أحداً من النائمين احتضان أي من تلك الأقدام الحافية، لأنه لم يكن يشعر بها، فهو بالحقيقة ليس بنائم، بل هالك أنهكه التعب وخارت قواه كلها من الإرهاق، وحتى لو انتبه فأنىّ له أن يميز بين قطع اللحم التي التحمت به، إن كانت جزءاً من وجه أو من ساق؟

بعينين حائرتين بدا أمامه الرهط المتكدس أشبه بجوقة أجساد نحيفة مرهقة تعلوها وجوه شاحبة، تعكس ملامحها البؤس والشقاء. تدور عيناه تتفحص المكان والوجوه، وينتابه شعور جارف بأنه والمعتقلين معه في هذه العلبة المغلقة بإحكام لم يعودوا في نظر السلطة سوى رقم شرير في أسطورة الشر وخيانة الوطن، وعداوة الحزب والثورة وتخريب الأمن القومي، وينبغي أن يسحقوا ويهانوا ويذلوا. انتهت آدميتهم منذ لحظة الاعتقال الأولى، بعد أن اتهموا بممانعة ألوهية السلطة؛ وعليه لن ترقب لهم حرمة، ولا تحسب لهم قيمة، بل يجب أن يعاملوا كقيمة مستهلكة مستباحة لا حدود للعبث بها. ولا ضير لو قطعت أخبارهم، أو أن غيب خبرهم وصار مصيرهم مجهولاً. لكنه مع ذلك شعر بالأنس أيضاً، فهو في رفقة محفل يشاطره رفض الظلم، ويتوق أن تلقي

الإنسانية بظلها على هذا الوطن بدلاً من زمرة القتل والجريمة التي تمسك بمفاتيح الزنزانة.

يتسلل الصباح بألوان شاحبة باهتة من ثقوب دقيقة كثيرة في صفيحة معدنية في أعلى زاوية عند السقف، تغلق فتحة ضئيلة الحجم متقاربة الأبعاد، هي المنفذ الوحيد لتجدد الهواء المتعفن في الزنزانة، ومنها فقط تنساب خيوط النور الأولى ليوم جديد بمثابة إعلان لبشائر أمل، تنسخ متاعب الماضي وتعد بحاضر وغدٍ أفضل عند المخلوقات الأخرى في العالم الخارجي التي تشاطر سكان الزنزانات العيش على هذه الأرض، أما فيها فهو نذير قاس مخيف لمواظبة حضور أنواع التعاسة والعذاب، ومناسبة أخرى لتجدد الجحيم.

هنا الجحيم، وهنا يتحدى البشر الآلهة في صناعة العذاب، وهل تملك الآلهة ألواناً من عذابات أخرى، لم تخطر على بال أحدٍ أكثر من هذه التي يراها الآن؟ ماذا سوف تفعل الآلهة أكثر من أن تعلق العصاة بالسلاسل من أرجلها أومن أيديها مقيدة للخلف، وهي في حال بين الحياة والموت؟ ولكن هل سوف تسلخ جلدها بمواد كيمياوية سريعة الاشتعال؟ أم تجعل أجسادها ترتجف والكهرباء تسري فيها، وتصيبها بوخز رعدة مؤلمة؟،وهل تسّاقط عليها ضرباً بالسياط ولو كانت تقضي حاجتها البيولوجية؟ وهل سوف تنتشي بتصاعد صرخات الوجع، أم سوف تقهقه جذلاً حين تخفت الصرخات إلى أنات ثم إلى أنفاس تتقطع لا يقدر صاحبها على كبح هروبها الأخير؟ يا ترى هل سوف تهلل بهجة،

أم تسكر نشوة بخمرة الموت، وهي ترى الوجع والألم والأنين يفطر قلب الصخر، وهي تقف ساخرة تتفرج لا جفن لها يهتز ولا هدب لها يرمش؟ هل في جحيم الرب ذئاب لها وجوه آدمية تدور حول المعذبين، وهي تعوي ثم تهجم على حين غرة، لتقتطع أجزاءً حية من أجساد معلقة بلا حول ولا قوة كالأضاحي، تارة تنزع الشعر عنها جذباً محملاً بالدماء وبقايا الجلد، وتارة أخرى تقتلع الأظافر من منابتها؟ وهل في الجحيم "الجلاد كاظم" صاحب النزوة الغريبة، الحريص حد الهوس على ممارستها، ليشبع رغبته، ويطفأ لهيب نار إدمانه السادي، بضحكة استهزاءٍ مريع وسخرية لاذعة بإخراج المعتقلين من الزنزانات، فينزع نصف شارب احدهم، ونصف ذقنه من الناحية المقابلة بشفرةٍ قديمةٍ مستعملةٍ صدئةٍ، تحفر في الوجه أخاديد من الجروح، وتنزع من الجلد أضعاف ما تقتطعه من الشعر. كل ذلك، يضاف له حرمان من الطعام إلّا بنزر يسير ومن الماء سوى جرعات في عز حر مقيم في تلك الزنزانات، أحالها لجهنم، فهو لا يبرحها أبداً. هل من وأد للحرية وإجهاض للحياة أكثر من هذا، وهل ستفعل آلهة الغضب التي ابتدعتها أساطير الأقدمين أشد من هذا، وهل سيكون عندها أوباش خلقوا للكراهية والشر، اكثر من هؤلاء الجلادين؟

لماذا يفعلون كل ذلك؟ إذا كانوا ينوون التخلص من معارضيهم، ألا يكفي قتلهم بسرعة وينتهي كل شيء؟ لماذا الإصرار على تعريض المعتقلين لزاد يومي من الإهانة والإذلال؟ ترعرع وعيه ونما في

المجلس الحسيني الذي قضى أوقاتاً طويلة في طفولته يستمع له، وكان مصدراً لإلهامه في وقائع كثيرة وعنده وجد جواباً لهذا السؤال المحير والمربك. كان الخطيب يقول: بعد قتل الإمام الحسين، نادى عمر بن سعد بجيشه قائلاً: احرقوا الخيام ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية، فحرقت الخيام وبدأت عملية النهب من النساء والأطفال الهائمين في البيداء تُسلب منهم الحلي، بل كل شيء، حتى وإن كان سروالاً لصريع ملقى على رمال كربلاء. السؤال كان يدور في رأسه، لماذا يفعلون ذلك؛ إذا كانت المعركة قد انتهت، وزال الخطر عن عرش بني أمية؟

لأنها ليست معركة بين أنداد، بل بين الإنسانية والبربرية، والهمجية لا تخشى من سلاح الإنسان في المعركة، بل مجرد وجوده يؤذن بخطر زوالها، ولا تجد حلاً للحفاظ على كينونتها سوى محو كل آثار البشرية؛ ولذا صاح ابن سعد: لا تبقوا لأهل هذا البيت باقية. ولأن الطغاة يتواصون الرذيلة ويتوارثونها، فما يفعله الجلادون هنا هو صدى متكرر لصرخات ابن سعد، ويجهدون بكل وسيلة وبحذق ومهارة الشيطان لأن يمسخوا المعتقلين، ويحيلونهم إلى قطيع مذعن يشعر بالذل والمهانة الدائمة حتى يظن انه خلق كي لا تكون له أي كرامة إنسانية.

ليس في الزنزانة رقم 7 فقط، بل في أي زنزانة أخرى سوف يمر بها في المعتقل أو في قسم مغلق من سجن أبي غريب مخصص حصراً للسياسيين، نزل عليه كم غفير وعدد كبير من الإهانات والتعذيب أغلبها بدون سبب، والأخرى لأعذار تختلق وحجج تبلغ من التفاهة حداً لا

يوصف، يحار المرء معها وهو يسمعها، هل يضحك لكمية السخافة التي فيها، أم يحتج عليها صارخاً باكياً لمقدار الاستهانة بعقل الإنسان؟ في واحدة من المرات، وهي كثيرة، سيق أحدهم لحفلة تعذيب، لأنه كان يتكلم بمظهر مؤدب أكثر من اللازم، فلم يكن يطلب شيئاً ما إلّا وأتبعه بكلمة رجاءً، ولا يسأل عن شيء إلّا وقدم سؤاله بعبارة من فضلك، فاعتبر هذا سلوكاً منحرفاً، يستحق الضرب لأجله. آخر تعرض لعقابٍ مؤلم، وتهمته باللهجة العراقية "شايف روحه"، والترجمة الواقعية لهذه التهمة ليس كما توحي العبارة تماشياً مع الاستعمال المعهود لها أنه كان متكبراً، كما قد يتبادر، بل لأنه كان معتداً بنفسه، لا يقبل الخضوع والانكسار، ولا يستسلم مهما مورس من ضغط وأذلال عليه. ثالث يضرب بلا هوادة وبدون رحمة، لأنه يكثر من قراءة سورة الفاتحة، حين يمر ذكر الأموات، ورابع تدور عليه زمرة من الجلادين ووكلائهم بالهراوات حد تكسير عظامه، فقط لأنه لم يكن يرق لرجل أمن، وخامس يجب أن يضرب بين حين وآخر، لأنه أصبح أيقونة لسوء الحظ، وليس لأي سبب آخر. إلا أن أخطر ما يكون التعذيب، عندما يكون عن قصد ومبيت لنية مسبقة تم التحضير لها.

11

من بين المعتقلين كان هناك عالم دين معروف، وكان المحققون رغم الوحشية التي تمتلأ بها نفوسهم والعدوانية التي يتصرفون بها، فإنهم كانوا يشعرون بالخجل والحياء أمامه، وهو أمر شاذ وغريب في ذاك العالم المقفر من بقايا الإنسانية وآثارها. شيء ما في قرارة نفوسهم كان يضطرهم لأن يعاملونه معاملة متميزة عن الآخرين. كان تصرفاً شخصياً وخضوعاً لنداء فطري وإحساساً بالجرم الذي يرتكبونه بحقه، فهم يرونه رجلاً بمركز ديني مرموق، وبهيبة تشع من كل حركة يقوم بها، مظلوماً من دون أي مبرر. ما فعلوه كان ترضية لضمائر استفاقت من سباتها؛ فوبختهم على قبح أفعالهم، لم يكن التعامل معه بناءً على توصية حكومية، وإلا فإن هؤلاء أفراد الأمن أنفسهم سوف يتحولون إلى جزارين يذيقونه صنوف العذاب عندما تصدر الأوامر لهم. لم يُسْأل يوماً معتقل أو سجين عما يحتاج أو يرغب فيه، إلا هو، وكدأب أي عالم ذائب في العلم والمعرفة لا يغير محل وجوده من اهتمامه بهما، فقد فطلب قرطاساً وقلماً، ليدون بها أفكاره ورؤاه خصوصاً في تفسير القرآن. لم يكن يشغل باله شيء غير العلم، حتى مغادرة المعتقل لم تأخذ حيزاً من فكره، ولم يجرى ذكرها على لسانه إلّا حين كان يفتقد أمراً ما في دراسته الدينية، ولا يجد مرجعاً يؤوب إليه أو مصدراً يعود إليه؛ فتخرج من صدره زفرات

وآهات وأحاديث التأسف على انقطاع دروسه في العلوم الدينية، عند أستاذه "السيد الخوئي" أكبر مراجع المسلمين الشيعة وقتئذ.

يأتي عناصر الأمن بين حين وآخر بحلاق، ويتم إخراج جميع من في الزنزانة لتحلق شعور رؤوسهم ولحاهم بالكامل. لم يكن الأمر سيئاً بالمطلق، فلا وسيلة للتخلص من جيوش القمل المنتشرة في فروات الرؤوس أفضل من رفع الشعر بالكامل. لكن ما يحدث من جروح كثيرة بسبب الحلاقة غير المتأنية والشفرات القديمة المستعملة، كان فصلاً مزعجاً مقرفاً، ليس للدماء التي يتطلب التخلص منها كمية ماء لا تتوفر، مع حرص السجناء وأغلبهم من المهتمين بطهارة أجسادهم لأسباب دينية، بل لأن من يبدي احتجاجاً، ولو اعتراضاً بسيطاً، فإنه يعرض نفسه إلى ضرب مبرح وعقاب بحلق الحواجب بتمامها ونصف الشارب ونصف الذقن، مبالغة في السخرية والإذلال.

كان العالم الديني "السيد محمد تقي الجلالي" يُستثنى من حلاقة الذقن، إلّا أنه حين قررت السلطة أن تنزل به عقوبة الإعدام، كان لهم معه شأن آخر. جاءوا وعيونهم تشع ناراً، وأحس من في الزنزانة بأن شيئاً رهيباً سوف يحصل، أنبأتهم بذلك هواجس اعترتهم من همس ولمز متبادل بين عناصر الأمن لمحته عيون المعتقلين النبهة والمحترسة، كما لم يخف على أسماعهم. فكان له طنين مزق آذانهم، وأنزل عليهم حزناً مفاجئاً. بعد أن رجع المعتقلين إلى الزنزانة حليقي الرؤوس والعارضين، سأله رجل أمن بفظاظة غريبة وغير معتادة في الخطاب معه: لماذا لم

تخرج لحلاقة ذقنك؟ لم ينتظر جواباً منه، بل سحبه بعنف إلى باحة تتوسط الزنزانات المتقابلة، تجمعت فيها مجموعة متأهبة، على أتم الاستعداد لإنزال عقاب جسدي صارم أليم به، وانهالوا عليه بضرب مبرح موجع. لم تخرج منه صرخة ألم، ولا ندت عنه آهة جزع أو قلة صبر، رغم سيل الهراوات التي انهالت عليه. أزيلت كل شعرة نبتت فوق رأسه وعلى بشرة وجهه البيضاء، بشفرة حلاقة مستعملة بطريقة رذيلة، خلّفت ما لا يحصى من الجروح النازفة، وأحالته إلى وجه ساكن بلا حركة، أملطاً بحالة تدعو للرثاء والشفقة. ظل واقفاً صامتاً بصلابة عجيبة، كان متعباً منهكاً، وجهه شديد الاصفرار محتقناً من الألم، ولكنه كان أيضاً متحفزاً في نظراته. إشعاعات الغضب تنفذ إلى أعماق من ينظر في عينيه. حين عاد للزنزانة، حاول بعضهم أن يواسيه فأبى ذلك بشدة، ورد عليهم بفخرٍ وكبرياء، أن وظيفته في أثناء تواجده بينهم وتكليفه الشرعي بحكم موقعه الديني، أن يصبرهم ويشد من أزرهم وأن يقوي من معنوياتهم، لا أن يُفْعَل العكس ويتلقى التشجيع والمواساة، بحكم أولاً: انه الأكبر سناً ، وثانياً : أن مقامه الديني يوجب عليه أن يكون رائداً في تحمل الأذى والصبر، والمقدم في العطاء والتضحية والإيثار. لم يكن مجرد موقف واحد تجاوزه بصبر وجلد عجيب، بل فعل ذلك كل مرة بطيب خاطر وبلا أدنى تبرم ولا تململ، من أي من الوقائع المؤلمة التي طرقته. لم يكن يذكر زوجته ووالديه، ولا حتى أطفاله، ولا بدا إنهم كانوا يمرون حتى في سر خاطره. عندما يسأل عن سبب عدم اكتراثه بمصير

عائلته، يجيب باطمئنان القديسين: إن الله قد عيّنه سابقاً للعناية بهم، أما الآن فقد قرر الله أن يعفيه من هذه الوظيفة؛ فوكل بها أحداً غيره. من يراه ويسمعه يعجب للهدوء الذي تنسكب الكلمات فيه من فمه، كأنه حين يتحدث يرى الله واقفاً أمامه بعينيه المجردتين، ويسمع صوته بأذنيه، وهو ينقل خطابه ليس غير، حين يقول بيقين أن لله حسابات اكمل وخيارات أدق، فعلام ينتابني القلق، أليس التفكير بهم بخوف هاجسٍ سخيف وفكرٍ تافه لا معنى فيه؟. أن الله اختاره من قبل للعناية بهم، وقطعاً قد وجد الآن شخصاً أفضل منه لرعايتهم، ولذلك أعفاه من مهمته. لم يُسمع يوماً يدعو في صلواته، طالباً من ربه الفرج ومغادرة السجن، لأنه يريد الحرية، بل كان يردد في صلواته بخشوع تام وابتسامة حزينة تعلو محياه: رب أرددني إلى أمي كي تقر عينها ولا تحزن.

كان ملاذاً للجميع وملجأً حين تضطرب النفوس، وتضيق النفوس، وفي يوم كاد سجاد أن تزهق روحه ضجراً وجزعاً، وانفجر باكياً من شدة مرض أصابه ومن الحرمان حد الإملاق التام الذي يعيشه. انهار إرهاقاً وحياءً، لأنه لم يعد يملك حتى ما يستر عورته. تدفق الحياء من عينيه دموعاً حارة لا يخبو لهيبها ونشيجاً مرتفعاً لا يهفت دويه، عندما لفت زميل له في الزنزانة انتباهه إلى انكشاف عورته. لم يجد حلاً لهذه المعضلة، فقد بات مفتقراً إلى سروال قصير يستر عورته به، بل حتى إلى خرقة بالية تقوم مقامه، لم يجد من بد أمامه سوى الارتجاف خجلاً

والارتعاش مضطرباً حياءً وارتباكاً، ومن ثم انهار بالبكاء والنحيب بدموع حارة وعاصفة من الألم والجزع.

اغتسل بالبكاء، فقلبه مملوء بالأحزان لدرجة أن أي شيء كان كافياً ليكون سبباً تتفجر معه مآقيه. تدفقت دموعه من عينيه على خديه، ولم يحاول منعها ولا رفع يديه ليمسحها، بل تركها تجري مثل سيل غزير تثير عجب من يراها، وتجعله يتسائل هل فعلاً إن الرجال يملكون كل هذا المقدار من الرقة والدموع؟طوى همومه في داخله وكتم شكواه في نفسه، لأنه لا يريد أن يهتك ستره على الملأ أكثر مما انتهك حتى اللحظة، وأرسلها للخارج دمعاً غزيراً. هنا ظهر السيد الجلالي"، جلس يحادثه ووضع يده على فمه ملاطفاً، ومسح دموعه بكفيه. أزاح عنه الكرب، بكلماتٍ تنساب مثل النسيم. هدأ خاطره وسكن روحه، التي كانت للتو في حالة غليان؛ فخضعت عواطفه المشوشة لإيقاع القلب الطافح، كأنه بحر من القداسة، ولفرط السكينة التي نزلت عليه، قال له في الختام لو علم والدي باني أجالسك لما همه شيء أبداً، بل ولفرح كثيراً. كانت أمنيته وأمنيتي أيضاً أن نجالس عالماً تقياً مثلك، والحمد لله حظيت برجائي ونلت منيتي. أليس حقاً القول، إنه كان رجلاً يحمل اسماً ينم حرفياً على مسماه، فمن بغير هذه الصفات يصح أن يسمى محموداً تقياً جليلاً.

لم تكن قصته هي الوحيدة في مثال الصبر على الأذى وتحمل المكاره بروح الإيمان والاتكال منقطع النظير على الله، إلا أن أكثرها

إثارة ما كان محط إعجاب السيد الجلالي نفسه. في زنزانة مجاورة عاش فيها الجلالي لفترة من الزمن، كان يحتجز شاب من آل الحكيم، اعتقل انتقاماً للنشاط السياسي المعارض، الذي كان يقوده شقيقه السيد محمد باقر نجل المرجع الديني محسن الحكيم، بعد نجاحه بالتخلص من احتجازه الإجباري ولجوئه لدولة مجاورة. هذا الشاب أو الشقيق الأصغر كان متفانياً في الصبر بقالب عجيب، ولم ينتكس أمام الإرهاب النفسي والتعذيب الجسدي. لم يقدم تنازلاً للسلطة ولا حتى بنصف كلمة، على الرغم من أنه لم يكن منخرطاً بأي نشاط سياسي من قبل. العجيب فيه ليس هذا، بل انقطاعه إلى الله وحده في مصائبه، ولم يسمع منه يوماً شكوى ولا صدر منه أنين، سوى مخاطبته لربه، بيقين العارفين: ربي إني أسير. كان متواضعاً مع الناس بمنوال أسطوري، ولم يضع نفسه فوق أحد، ولا رأى نفسه يوماً أنه خير من أي من البشر، ولم يصدر منه أدنى تذمر ولا بغض لأحد حتى لجلاديه الذين كانوا يسومونه العذاب أكثر من أي أحد في المعتقل؛ مما دفع السيد الجلالي، وهو الأكبر منه سناً ومع ما تجملت سيرته وتحلى سلوكه بالصفات الحميدة وعجيب الصبر والتواضع المثالي، أن ينحني أمامه ويقول عنه في غيبته: لو لم تختم النبوة بمحمد (عليه السلام)، ولو كان لهذا الزمان من نبي فلن يكون غير سيد علاء الحكيم.

أماسٍ ربيعية معتمة، تمر على الزنزانة رقم سبعة، المكتظة بالرجال مثل ديوان أبيه وهم يتبادلون الأحاديث فيها طول الوقت بلا توقف. غير

أنها لا تشبه الديوان بشيء. هناك كان يدور مثل النحلة طيلة الوقت، يقدم لهذا شراباً ويرفع صحناً من أمام آخر، ويطوف على الجالسين بالسجائر، أما هنا فقد صارت غاية أحلامه أن يخطو، ولو لمرة واحدة رواحاً ومجيئاً في تلك الزنزانة الضيقة الأبعاد. أي حلم كبير وسخيف أيضاً، وهل يمكنه أن يتململ فيها أصلاً حتى يحلم بالحركة فيها؟ في العالم الخارجي يستطيع الإنسان أن يذهب إلى الخلاء متى يشاء، لا أحد يحجزه عن ذلك ولا يقف عند بابها يطلب منه الخروج في الحال، لأنه تأخر أكثر من اللازم. مضحكة بحق كلمة خلاء، أليست جاءت خلاء من خلو وخالي؟ أين هو الخلاء، إذا كان أربعة يفترشونها ليل نهار، وعشرون آخرون يسمعون مختلف الأصوات التي تصدر من الأمعاء؟ إنه حتى لا يستحق كلمة مرحاض، فهو ليس إلا صحيفة أو حفرة صغيرة ترتج فيها مياه ملوثة، تتقافز منها القذارات كل ما حركها شيء يسقط فيها. كان مجلس أبيه يضج بعيون تلمع بالضحكات وتشرق بالفرح والتفاؤل أينما التفت المرء فيه، أما هنا فلا تحضر إلا عيون غائرة انطفأت فيها صور العالم الخارجي، وغابت عنها صور الشوارع المعبدة الطويلة والأشجار الباسقة وقامات البشر المتحركة، تنظر ولا ترى شيئاً، وأن رأت فلا ترى إلا أبخرة تخنق فضاء الزنزانة، وخيوط حزن تلتف حول حديث مزمن لا ينفك عن مناقشته الحاضرون فيها. الموت الذي ينتظر من تجاوز العشرين عاماً، مهما كان الجرم الذي أتهم به، ولكن

أنّى لأحد وسط هذه الأجواء المشوشة، أن يطمأن بأن حبل المشنقة لن يخنق أوداج رقبته ولو كان أدنى من العشرين؟

يتفاوت نزلاء الزنزانة في أشياء كثيرة، الأعمار، التحصيل الدراسي، والانتماء الاجتماعي والطبقي. بينهم أساتذة، طلبة، عمال وموظفون ربما في درجة عليا، حتى إن أحدهم كان يرأس دائرة صناعية مهمة. عدد كبير من المعتقلين مثل سائر العراقيين كان منخرطاً في الحزب الحاكم جراء سياسة الانتماء القسري، التي طبقها البعث بشدة وبلا هوادة، فلا غرابة إن يوجد معتقل من حزب السلطة، إلّا إن آخر ما يتوقعه المرء، أن يكون بين المعتقلين عنصر أمن من عائلة تحترف خدمة أجهزة السلطة القمعية، فقد كان شقيقه يشغل منصب مدير حوانيت مديرية الأمن العامة نفسها، وبرغم ذلك بات الآن كالآخرين، يواجه عقوبة الموت، والسبب وشاية كاذبة، أو اعتراف انتزع تحت تعذيب جسدي قاسٍ، بطريقة غير أخلاقية، لا تناسب أدنى مستوى من التعامل الحيواني وليس البشري. حتى إنكار الواشي أو الزعم بعدئذ أمام الحاكم العسكري أن من اعترف عليهم أبرياء من الاشتراك في أي نشاطٍ معارض لم تجد نفعاً. دعواه أنه كان مطالباً تحت التعذيب بتقديم أي أسماء للخلاص من التعذيب، أو أنه ذكرهم في التحقيق، لأنه لم يجد بداً للخلاص سوى ذكر عناصر من الحزب الحاكم لعله ينجو من العقوبة أو يخفف عنه العذاب، لم ينقذهم من القتل أو من السجن المؤبد، مع أن الأخير كان يُعدُ فرجاً عظيماً في عرف سجون البعث السرية بالنسبة

لعدد كبير من المعتقلين، ممن كان يأمل أن تستبدل عقوبة الموت بأي عقوبة أخرى، ولو السجن مدى الحياة، لعله تحين بعدها فرصة للنجاة. آخرون كانوا يرون الموت خلاصاً لهم من الجحيم الذي يعيشون فيه، وزمرة أخرى كانت ترنو بشوق للموت وترى الشهادة أجمل نهاية للسبيل الذي اختطته وأحلى ختام للطريق الذي آمنت بمنهجه وأخلصت له، ولا تجد عطاءً تجود به لقضيتها أفضل من أرواحهم التي بين جنبيهم، فهي النعمة التي منّ الله بها عليهم ليظهروا في الدنيا، وما من شكر يوازي هذه النعمة سوى أن ترجع بالعرفان إلى بارئها.

عندما يتواجد المرء معهم في زنزانة مغلقة كأنها علبة سردين، ولا يجد فيها سوى بطانية عسكرية رقيقة سوداء، يضطجع فوقها على أرضٍ إسمنتية خشنة، لا تحميه من نتوءاتها البارزة، كأنها مسامير دقيقة، تنفذ في الجلد مثل إبرة برأسها الحاد. وعندما يعجز عن إحصاء أسراب القمل، ويفشل في اكتشاف مستعمراته المخفية فيها، إلّا من خلال عضاته التي لا تتوقف ليل نهار؛ عندها يستطيع مشاطرتهم آراءهم، أو الحكم عليها. انتظار عقوبة الموت أو العيش في السجن مدى الحياة، خياران لم يكن هناك مفر من احدهما، ولم يكن يسيراً لأي معتقل أن يفضل أحدهما على الآخر. بعضهم كان يرى أن عقوبة الموت خيار أفضل، لأن الإعدام يقتل المحكوم مرّة واحدة وعلى الفور، في حين أن السجن يقتله ببطء. ولربما يبلغ من تشوش الأذهان إلى حدٍ كان البعض تساوره أفكار، بأن الجلاد الذي سوف يقتله شنقاً خلال بضع دقائق

أكثر إنسانية من ذاك الذي يسحب حياته ببطء من جسده خلال سنوات عديدة، وفي النهاية هذا سوف يقتله أيضاً، إما جوعاً أو مرضاً أو تحت عصي التعذيب. نعم، إنه وهم سخيف أن تتم المفاضلة بين طريقتين كلاهما تخلوان من الإنسانية، فهل يمكن حقاً المفاضلة بين الجلادين؟ ومتى كان الجلاد يحوي فضلاً وخيراً، حتى يقال هذا أفضل من ذاك؟ ولكن عندما يكون الإنسان في موقف صعب مؤلم كهذا، وفي ظروف شاذة كتلك، يتشوش الذهن وتبدو أشد الأمور وضوحاً ملتبسة ومعقدة.

مهما كان الجلاد، وبأي طريقة كان ينزل العقوبة بالمعارضين، فإنه في الواقع كان يعمل على تحقيق هدف واحد محدد للسلطة، وهو حجر عقول الناس، ومنعهم من التفكير، وإبداء آرائهم بما يخص حياتهم وشؤونهم العامة والخاصة. سلطة وضعت نفسها موضع الخالق، وأعطت لنفسها من الحق ما لا ليس لها، ولا لأي احد غيرها إطلاقاً، بخطف حياة الناس وقتل معارضيها، وفي النهاية تُصيرهم أسرى خيارين شنيعين قبيحين، وعلى واحدهم أن يقول إن أحدهما اجمل من الآخر. أليس هذا هو الجنون الذي يدفعونهم إليه، وبه يمسخون إنسانيتهم،؛ فما يعودوا يميزون بين النور والعتمة والضياء والظلام؟

12

من عيون اعتادت على الظلام، يرسل نظراته في العتمة المخيمة على خانة خلفية في عربة مغلقة تخلو من النوافذ، بل من أي فتحة تهوية، وقد ازدحمت بمعتقلين ومعتقلات، جلسوا على كراسٍ حديدية، وهي تسير بهم إلى محكمة الثورة. الهواجس تملأ رأسه، وتبادل الأحاديث ممنوع في قائمة لا تنتهي من الممنوعات، ومع ذلك كان يتلمس اضطراب المشاعر والخوف السائد بين رفاقه ورفيقاته، من رحلة سوف تكون لحظة اللقاء الأخيرة، ومن غير أن تتاح أي فرصة بينهم للوداع. مع ذلك سيطر عليه تفاؤلٌ كبير، إذ كان يرى أن رهبة المكان ومشاعر من بقربه هي التي ملأت نفسه بهذه الهواجس، ولا سبب واقعي يدفعه للانجرار وراءها. بالأحرى إنه لم يكن مدركاً بعد لحجم الورطة التي علق بها. مع ذلك كان غارقاً في تفكير غريب لا يتناسب وتفاؤله.

لو طلب مني الاختيار بين السجن والموت، فسوف أختار السجن، ما دامت هناك حياة فالاحتفاظ بها أفضل من فقدانها، حتى لو كانت الشهادة في سبيل الله كما يقول الكثير، ولو أنني لن أتحمل السجن، ولا حتى لسنة واحدة إضافية لهذه الأشهر التي قضيتها. ثم يصحو من تلاطم أفكاره ويسأل ولكن علام هذه الأفكار السوداوية، فأنا لم ارتكب جرماً ولا يوجد أي شيء يستحق العقوبة أكثر مما جرى. حين وصل لمبنى المحكمة، كان منسوب الاطمئنان قد بلغ عنده مداه الأخير، وطفح من

جوانب روحه، ولمعت في ذهنه فكرة جامحة أن كل الذي جرى ما هو إلا تأديب قاسٍ ليس غير ذلك، وفُعِل بهم ما فعل فقط كي يرتدعوا، ولا يعاودون أفعال التعاطف مع أنصار المعارضة ثانية، وأنهم قد بلغوا اليوم المحطة النهائية، ولم يتبق إلا أن يطلق سراحهم في القريب العاجل.

لم تصدق أذناه ما سمعه من رئيس المحكمة مسلم الجبوري، وهو يصدر حكماً عليه بالسجن المؤبد. أحس بفراغٍ هائل، كأن الكون قد تلاشى بأكمله، وظل يعيش في مساحة هلامية بين الواقع والخيال، ينتظر أن يفك قيده، ويعود إلى مدرسته وكتبه بعد أن يسمع توبيخاً قاسياً، وبين واقع صرخات مرعبة وشتائم نابية تأمره بالتحرك وعدم الوقوف مثل البغل. لم يفق من غيبوبة يقظته أو يقظة غيبوبته، إلّا حين دخل السجن الصارم في الأقسام المغلقة المخصصة للسياسيين. حينها بلغ اللحظة الحاسمة، وبدأ الاعتراف بالواقع، والتخلي عن أحلام السذاجة وقلة الخبرة. كان لابد من وداع للأحلام الساذجة، إلّا إن البراءة والطيبة، لابد من التمسك بهما في هذا السجن الموحش، وما بعده أيضاً عليه التشبث بهما، فهما سر الإنسانية، ومن يفقدهما سوف ينحدر إلى البهيمية رويداً رويداً من حيث يشعر أو لا يشعر.

اختفى العالم الآخر خلف أسوار السجن العالية الرمادية، التي أخذت لونها من آجر إسمنتي بنيت به، وحصنت بأبراج حراسة، كأنها رؤوس قلعة من القرون الوسطى، يقطنها رماة متأهبون على مدار الساعة. سجن موحش، ومتوحش بمقدار هائل، ويعجز الخيال عن إيجاد أي

تفسير له. حينما دخله، شعر بغباءٍ مرير، وهو يستذكر أيامه في زنزانة الأمن العامة، وفي ساعة المحاكمة. استرجع بمرارة صورته فيهما، وكيف كان وقتها مسلوب العقل، مأخوذاً بسذاجته، مخموراً بها، كأنه واقع تحت تأثير سكرٍ حد الثمالة، جعله يظن أن لهذه الوحوش منطقاً آدمياً وعقلاً بشرياً، ومشاعر إنسانية. دوامة من الهذيان عصفت به اختلط فيها كل شيء عنده، كأنها إعصار يرفع ما يقف في طريقه لا يفرق بين حجر وبشر، يرفعه بسرعة الجنون ويطيح به بعيداً إلى القفار مهشماً متشظياً لا فائدة ترجى منه ولا نفع.

يسأل نفسه بحرقة ومرارة وألم :أيها الفتى اليافع بجسمك النحيف كخبرتك الضئيلة وتجربتك القليلة، هل فكرت جيداً فيما حدث حولك، أم تلقيت كل شيء بغباوة وبلادة؟ ولو أنك فكرت، هل كنت ستغير شيئاً؟ هراء، فكرت أو لم تفكر لن يتغير شيء، سوف تموت في هذا السجن، ولن يفرق شيء، ربما مع التفكير تموت ذكياً مجنوناً وبدونه تهلك غبياً سعيداً، ومن قال أصلاً لو انك فكرت سوف تموت ذكياً؟ لن تحصد سوى الجنون، وهل يستحق الأمر أصلاً عناء التفكير والتحليل وكل ما يسبب الصداع ووجع الرأس؟ هل عليّ مواجهة خسارة شبابي في هذا السجن، وهل أنها حقيقة أم حلم آخر؟ عشرون سنة؟ حتى لو كنت أقوى من صديقي "هلال" الذي تحمل الضرب أكثر من الحمار، وكان يقول أنه تفوق على البغل في قدرة التحمل، فلن استطيع البقاء في هذا المكان أبعد من بضع سنوات، وليس لعشرين عاماً. عشرون عاماً

تساوي مجموع حياتي التي عشتها، فأنا بالكاد سوف أبلغ العشرين بعد عام، فهل يتعين عليّ أن أعيش حياتي في السجن؟ وفرضاً اني بقيت حياً كل هذه السنين، فكيف سوف أخرج منه، لا شك سوف أبدو هرماً أتوكأ على اليأس وعجوزاً أتلفع بالحزن؟

عيناه تدوران في أرجاء الزنزانة رقم ستة في القسم المغلق الأول من سجن أبي غريب، يذرع أبعادها بهما جيئة وذهاباً، ويتأمل في المكان الذي لا يختلف كثيراً عن زنزانة الأمن العامة إلّا في تفاصيل قليلة لا معنى حقيقي لها. ستة أمتار مربعة بعددٍ يفوق الثلاثين شخصاً، إلى زنزانة بعشرين متراً مربع تقريباً، ينزل فيها خمسة وأربعون شخصاً وأكثر. لا فرق، فلا يمكن له أن يتخطى كومة الأجساد المتراصة، إن بدا له أن يحرك ساقيه وليس عينيه للتجول في الكون الذي اختزل في أربعة جدران مظلمة باردة. الفرق بين الزنزانتين كان في دورة المياه. جدار بعلو ستة أقدام تقريباً في زنزانة المعتقل، أما في السجن جدرانها لا تعلو عن مترٍ واحدٍ، مما تطلب صنع ساترٍ صناعي من خيش بلاستيكي. وهناك لم تكن تستعمل للتخلي وحسب، بل مقراً لإقامة خمسة أشخاص على مقعدها الشرقي رغم حافاته المكسورة التي جعلت منه سكاكين تخرج من بطن الأرض، وعلى حائطها حاول آخرون مراراً الجلوس عليه، لكنهم كانوا يفشلون في كل مرة بإتمام محاولتهم بعد دقائق معدودة، بعد أن تخنقهم رطوبة الأجساد المزدحمة المتصاعدة إلى فضاء الزنزانة العالي.

لن تصله رسالة ولا يبلغه خبر من ذويه ومعارفه، ولن يجد متعة زائفة يسري بها عن نفسه، كما يفعل آخرون بالتدخين مثلاً، ليس لأن التبغ يفسد هواء الغرفة الرطبة المظلمة، فهو بالأصل فاسدٌ، ولن يفسده شيء آخر مطلقاً، بل لأنه كره التدخين بالغريزة، ولم يجرب أن يضع سيجارة بين شفتيه أبداً طيلة عمره، مع إن سيجارة واحدة يتقاسمها عشرون سجيناً لم تكن لتسمم رئة عصفور. لن يرَ صحيفة ولا كتاباً، ولن يُسْمَح له بالكتابة؛ فاقتناء ورقة أو قلم يعد جريمة كبرى يترتب عليها عقاب وخيم للغاية. ومع ذلك لن يعدم الوصول لهما سراً، فأي جزء مدبب سوف يصلح أن يكون قلماً، أما الورق فيمكن تدبر أمره من أي غطاء لعلبة لبن. عشر سنوات تحت حراسة شديدة، لا يغادر باب زنزانته، ولست سنوات عجاف متتابعة لن يرى مخلوقاً آخر من العالم الخارجي سوى عناصر الأمن، ولن تعود له صلة بهذا العالم الواسع، إلّا بالنظر إليه من خلال كوة في الآجر الإسمنتي، أشبه بنافذة كوخٍ تسكنه أقزام ضئيلة الحجم. حينما ينظر منها إلى الخارج، لا تتلقف عيناه سوى مناظر لقمامة متراكمة لسنوات متعاقبة، تسد الأنف برائحتها النتنة، ويعتريه شعورٌ موجع ومحبط، بأنه قد هوى من قمة الكون إلى قعره.

يبحلق بعينيه إلى أعلى ما يمكن أن تذهب له من خلال ثقوب الآجر الإسمنتي، وهو ينحني بجسده إلى الأمام، ولا يعرف من يراه، هل هو يجلس القرفصاء لأن أليتيه تكادان تلامسان الأرض، أم إنه يقف مستنداً إلى ما يفترض أنه شباك؟ تملأ رئتيه رائحة العفن من ساحة ترابية

غمرت بمياه صرف صحي آسنة، يطفو عليه كل ما يمكن للريح أن تطيح به من قمامة. تطوف فوقه أسراب كثيفة متزاحمة من بقٍ وذبابٍ ملون بحجمٍ ملكي، وحشرات سوداء دقيقة تلقى حتفها ببلاهة عجيبة على سطح ماء، جمع في برميلٍ بلاستيكي أصفر شد بإحكام بخرقٍ قد برمت باحتراف، وصارت حبلاً غليظاً، على الرغم من أن الخرق البالية كان يعسر الحصول عليها، لأنه لا يوجد في هذه الزنزانة من شيء يبلى. غطاء مستودع الماء كان لا يؤدي وظيفته أغلب الوقت، لأنه كان يجد مهاماً متعددة أخرى أشهرها أن يكون صحناً للأكل.

من عند الكوة الصغيرة، يجلس يراقب قطاً يبحلق فيه، وقد وقف ساكناً بلا حراك لزمن طويل. أتعبه انتظار أي حركة منه، وظل يبادله النظر طويلاً إلى حدٍ، أنه لم يعد يشعر بأنه في الزنزانة، وسرح بعيداً في خياله. تملكته فكرة غريبة أن هذا الهر مبعوث من السماء، قد أرسل للتسرية عنه، ولربما هو جِنٌ صالح، تمثل بهيئة قط ليحرسه. استحوذت الفكرة عليه تماماً، وارتسمت على تعابير وجهه؛ فبانت تكشيرة أو ابتسامة بلهاء، رغم محاولته الفاشلة في إخفائها بزم شفتيه. صوت المفاتيح الثقيلة وقدور الطعام، وهي تدخل القسم نبهته من أوهامه، وأشعرته بالقلق من سخافة أفكاره. ما هذا الهراء، وهل هذا هو همس الجنون؟ مشى منصرفاً عن تلك الفتحة التي ملأت انفه بالرائحة العفنة ورأسه بالهراء، وحاول التغلب على شعوره بخجلٍ داخلي أربكه، وعض على شفته بنفاد صبر. وشعر بحاجةٍ للبصاق على كل شيء.

معاناته من تحسس الروائح ضاعفتها الرائحة الكريهة، والحشرات الدقيقة وهي تدخل انفه عنوة. اعتاد بعد كل عطاس أن يقول فوراً الحمد لله، لكن هنا ضحك في سره بطريقةٍ غريبة، كأن نشوة أصابته إلى حد كاده أن يقهقه، ثم قال بعدها: الحمد لله، أن العطاس ليس ممنوعاً في هذه البقعة من الكون. انتبه إلى كمية الرذاذ الذي خرج منه وأصاب كل شيء حوله، واستغرب أنه لم يداخله إحساس بالحرج، بل وحتى لم ينظر حوله ليرى إن كان قد أزعج أحداً بعطاسه. سرى في نفسه خاطر بأنه لا يوجد هنا سببٌ للشعور بالإحراج، وما من أحد سوف يتذمر. استرجع أيام الزنزانة مع زميله الوقور فيها "عامر الفايز"، وكيف كان يمشط شعره بمشط مكسور، لم يتبق فيه إلّا سنان فقط، حين كان يستدعى للاستجواب بين حين وآخر. كان وهو يراه يفعل ذلك يقول له:

- ماذا تفعل يا حاج! ألا ترى أين نحن، ألا ترى هذه الفوضى العالقة في جميع الأشياء هنا؟.

- لابد من حفظ هندامي وانا ادخل على المحقق، حتى لو رتبت منه مقداراً قليلاً، لا أريد أن يراني مكسوراً مبعثر الهندام. كان يرد بثقة ووقار.

تذكر حاله قبل أن يعتقل، كيف كان يتصرف بأدب، ويعتذر إن عطس أو سعل قليلاً، وكيف كان ينظف أنفه بعناية فائقة، وبحرصٍ لا يثير معه قرف أو اشمئزاز أحدٍ قربه، أما الآن فهو لا يتردد في مسح أنفه بطرف ثوبه. عندما كان يعود إلى البيت، كان أكثر ما يخشاه من والده مخالفته

للأصول والآداب، أما هنا فانتابه شيء كثير من عدم المبالاة. تولاه الفزع، وهو يتأمل حاله التي وصل إليها، وادرك في تلك اللحظة لماذا يعامل وزملاؤه بهذه الطريقة الفجة الشنيعة. إنهم يريدون إتلاف الإحساس بالإنسانية فيهم، بتعذيبٍ يجري بأعصابٍ باردة، ولفترة زمنية طويلة لإعطاب طاقاتهم بتهديمٌ بطيء، وضغط جسدي دائم مرهق؛ فإذا ما نجا السجين من أمراض السجن، وما أكثرها، فهو لن ينجو من تشوه روحه. وبذا تخضع المعارضة بعد إشعار أفرادها بالعجز، بأن لا شيء في الوجود يستحق الاحترام بعد الآن، وتتحول أفكارهم إلى عبثية لا تقيم وزناً لشيء ولا تهتم به. وظيفة السجن ليست لإخراج المعارضين من الساحة السياسية وحسب، بل لإلغاء الاعتراف بإنسانيتهم، وتجريد السجين أو المعتقل من إنسانيته، كي يشعر إنه غدا حالةً خارجةً عن كل اعتبار إنساني، وليس هناك من قانونٍ يحميه، وبالتالي فهو بين ثلاثة خيارات إما الموت أو الجنون أو أن يكون من القطيع. هدأت نفسه بعد هذا الاكتشاف، وعلت وجهه ابتسامة عريضة فضحت مكنونه. وحدث نفسه: حتى لو لم يأبه احدٌ لأي فعلٍ أقوم به، فسوف اذهب واعتذر عن أي فعلٍ كنت أعتذر عنه من قبل، وإلا حققت مبتغاهم وأنلتهم مناهم. التصرف بطريقة غريبة خيرٌ بألف مرة من الاستسلام لخططهم الوحشية. أن يكون المرء غريب الأطوار خارج المألوف خير بألف مرة من أن يتحول إلى فرد في قطيع مسلوب الإرادة.

أصابته حمى التفكير بالعودة إلى فضاء الحرية، بطريقة سممت حياته، وزادته اعتقاداً بتوالي الساعات والأيام، أنه أجرم وأذنب في حق نفسه. لم يعد يرى أمامه مستقبلاً، ولا حتى يستطيع أن يتخيل، ما قد يحدث له بعد. وكلما حاول النظر إلى الماضي، أصابته قشعريرة ورعشة خوف، واحس بأنه لم يكن يملك من الشجاعة الكافية لاقتحام هذا العمل عليه؛ فلماذا ورط نفسه فيه؟ النظر في الماضي، كان يخلف فيه آلاماً مبرحة وعذاباً عظيماً يمزق قلبه، حتى أنه لم يعد في عينيه من الدموع ما يكفي للبكاء، وهو يرى ما قد ناله من الأذى، ولحق به من الضرر. ما الذي كسبته حقاً حينما تبرعت بتلك الأموال لعوائل المعتقلين والمعدومين الفقيرة؟ راح يتساءل مع نفسه، هل أن أخسر عشرين سنة من عمري في هذا الموضع والمحل المتعفن، تصلح ثمناً مقابلاً لتلك الأموال التي أنفقتها؟ ألا يبدو كما لو أنني القيت كل ما أملك من أموال في الشارع، لأجل شيء زائل؟ هل كانت هذه مقامرة رعناء مني أم كانت رهاناً على الحصان الخاسر؟ نعم، إنه رهانٌ خاسر، كان يجدر معه أن يحكم عليّ بالموت. الموت استحقاق أفضل لي بكثير من السجن مؤبداً، حتى لا أظل أعيش مع حماقتي هذه لعشرين سنة كاملة[9]، بل عمري كله، هذا إن بقي لي من عمر بعدها، وهل يحسب هذا عمراً، وهو يحمل حماقة كبيرة كهذه؟ لكن لا، لماذا إنها حماقة وغباء؟

9(في القانون العراقي السجن المؤبد كانت مدته عشرين سنة، وليس مدى الحياة)

لماذا لا تكون هذه أفكار اليأس والهزيمة، التي لا ينبغي لي أن ادعها تقتحم رأسي. فأنا ابن الحاج حامد المهدي، الرجل الذي أصابه المال، ولكنه لم يفقد القناعة، ولم ينس يوماً مد يد الغوث لأي ملهوفٍ طرق بابه، واستغاث به، حتى وإن كان لا يملك شيئاً يغيثه به. هل أنسى يوم جاءه عبد المطلب القريشي صاحب الأطيان والعقارات والأملاك، ليس في بغداد وحسب، بل حتى في دول أوربية. طرق بابه بعد أن وقع في محنةٍ عصيبة، أدخلته في أزمة مالية خانقة، وطلب منه أن يساعده في تدبير مائة الف دينار. كم كان عظيماً ومحرجاً سؤاله، وكم كان عجيباً ما فعله الحاج، ولم يكتف بتهدئة خاطره وتسكين روعه. أوعده بحل مشكلته، وإخراجه من المأزق، وتوفير بغيته في اقرب مما يظن وأعجل مما يخشى وقوعه، مع أنه في الواقع لم يكن يملك حتى ربع ما سأله عنه، ولذا أخذ يدور بين الرفقة والأصحاب يقترض من هذا، ويستدين من ذاك، ويرهن عند ثالث ما يملكه من حلية أو مصوغة، حتى تدبر له بغيته، وأعطاه سؤله. فهل يعقل بعد هذا مني ألّا أفعل شيئاً أحاكي فيه فعله وأستن بسيرته وأتأسى بسلوكه؟ أو أن لا أفرج الكرب، ولا أزيح الغم، وأدفع الهمّ عن أطفال يتامى مظلومين، غدوا بلا معيلٍ وأمسوا بلا كفيل، لا لذنب اقترفوه ولا لجرم ارتكبوه، سوى كونهم أبناء أناس لم يقبلوا بحكم الفرد الواحد؟

نعم، كان عليّ أن أفعل ذلك، ولو كان ثمنه سنوات عمري. وأصلاً لا أملك شيئاً غيرها، فماذا كان بوسعي أن اقدمه غيرها، كي ألوم نفسي

الآن، وأتهمها بالسذاجة والغباء؟ أبداً، لن أجانب الكرم، ولن الزم الطمع والحرص، فانا ابن أبي، ومؤمن بمن قال "من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون"[10]. وسوف أرجع لهذا الرب في كل الأحوال، فلم لا أرجع، وانا قرير العين بأني سوف استرد قرضي منه لا بقدره وحسب بل بما لم تره عيني ولم يخطر على بالي، لا أن أغادر إليه مفلساً، ثم أجد هناك حصاد حرصي وطمعي عدماً أبدياً، وألقى جزاء الشح والبخل فقراً سرمدياً؟

التفكير السلبي لن يشعر المرء إلّا بمزيد من الضعف، ولا خيار في السجن أمامه إلّا أن يكون قوياً صلداً مثل الصخر الأصم. وإنها لحماقة أن يسيطر القنوط عليه، لأنه ما من خطيئة ترتكب أكبر من اليأس. التفكير كثيراً، سوف لن يحدث صداعاً في الرأس وحسب، بل إنه يدفع للجنون وحتى للانتحار، وما من داع لإضاعة الوقت والجهد في تمني رؤية ما سوف يحدث في المستقبل، لأنه قد لا يحدث أي شيء على الإطلاق، وحينها تكون لحظة قاسية في وقعها تحطم كل الآمال، وتغرقه في بحرٍ من الأحزان لا نجاة منه، إلا حين يتوسد المرء أحجار القفر في بطن قبر.

كان وجهه يمتقع غضباً مع شعور بندم عميق، عندما يفطن إلى أنه وقع أسير وهمٍ قاتل وخدعة كبرى في الأشهر الثلاثة الأولى من دخوله

10القران الكريم، سورة البقرة، آية 245

السجن. راح يفكر ملياً في كيفية مقاومة هذه الحرب الخفية، ولا يدري هل يستطيع أن يقاومها في مستقبل الأيام للنهاية، أم إنه سوف يستسلم لها؟ بل إنه بدأ يفكر، هل يجب أن يوضح للآخرين اكتشافه هذا، كي يساعدوه في المقاومة، أم إن عليه التغاضي، والكف عن الثقة بالآخرين في وسط مشبوه، إذ إن عين مراقب الزنزانة الخائن لا تكف عن مراقبته، ويسعى لافتعال أي عذرٍ لإيقاع العقوبة به. كان يخشى من الهلاك تحت الهراوات، بعد أن بدأت صحته بالتدهور السريع متلقفة عدوى السل الرئوي الوباء المنتشر جراء عتمة الزنزانات والرطوبة المستوطنة فيها وتزاحم الأنفاس.

مراقب الغرفة كان واحداً من فئة يصطلح عليها في لغة السجناء السياسيين ب"حصاد الشبكة"، ويقصد به أولئك الذين جاءوا بطريق الخطأ، وعلقوا في شبكة الاعتقالات العشوائية، مع إنه لم يكن لهم من دخل بأي نشاط معارض، بل ربما كان بعضهم من عملاء السلطة وخدمها. أحدهم كان بدرجة نصيرٍ متقدم في حزب البعث، وعلى وشك أن يردد قسم العضوية في مناسبة قريبة، ومع ذلك فقد اعدم شنقاً. كان يعمل مدرساً وطالما سبب مشاكل أمنية لزملائه، وعندما اعتقل أحدهم وتحت التعذيب، طُلِب منه أن يقدم أسماء رفاقه في خليته الحزبية المفترضة. لم يتردد الرجل في ذكر اسم هذا المدرس البعثي، ليرد إليه التقارير الحزبية التي افترى بها بخسة ونذالة منقطعة النظير على زملائه.

لم تنفع وشاياته السابقة ولا توسلاته، بأنه تابع مخلص، وخادم مطيع للحزب والثورة، بأن تخلصه من التهمة . ثم أسرع المرض إليه بخطى واسعة، وأقعده عن الحركة تماماً، كان يتمتم أحياناً في الزنزانة مخاطباً بتملق وجبن أشباح أسياده التي تطوف في رأسه: سيدي اسمح لي أن أتجرأ عليكم وأزعج سيادتكم، لأنه يجب أن تصدقني، أنا لم أفعل أي شيء، كما يقولون عنيّ. إلا أنه لم يكن أحدٌ يصغي إلى أحلامه، كما لم يفعلوا في غرفة التحقيق. أدار ضباط التحقيق وجوههم عنه، وكانوا يردون عليه ركلاً بأقدامهم، وينزلون به عقاباً مؤلماً يخمد تضرعاته وتوسلاته، مما اضطره في الآخر أن يعترف، على أنه مسؤول في حزب سياسي معارض. أقحمه الحرس وهو شبه مشلول الساقين في الزنزانة، سقط على أقدام أفراد الأمن، وهم يحشرونه في الزنزانة المكتظة فركله أحدهم وهو يقول له: ادخل ومت هنا، أيها الخائن الخرف المعتوه. أُوصد عليه الباب، ولم يفتح ثانية له إلّا حين سيق إلى الموت شنقاً رغم أنه كان مشلولاً تماماً. أمثال هذا كثير، بعض منهم صادفه الحظ، ولم توقع به عقوبة الإعدام، بل دخل السجن، وعاد من جديد إلى ممارسة ما كان عليه من أفعال الوشاية والنميمة والخيانة، وإلصاق التهم الباطلة بالسجناء بدناءةٍ كبيرة وأبخس الأثمان، بل حتى بدون ثمن. وليس ذلك وحسب، بل إن هؤلاء المنافقين الخونة كانوا يتعرضون أحياناً إلى الإهانة والإذلال جراء وشايتهم.

مرضى تسيطر عليهم رغبة مجنونة في الإحساس بالقوة والتعالي بدوافع سادية، وفي مشاهدة معاناة البشر وهم يتعذبون، يقومون بوشايات وضيعة لإرضاء نزعة شرٍ خبيثة في نفوسهم، بمعاداة كل ما يبدو مثالياً وكاملاً. واحد منهم كان مختار المحلة التي يسكن فيها حامد المهدي. كان هذا المخلوق من المهووسين بالتلذذ بعذاب الآخرين، في مرة سعى لدى رجال الأمن بوشاية خطرة بعد خروج سجاد من السجن، مفادها أن بيت الحاج يحوي أسلحة. بالتأكيد أن السلطات الأمنية لم تكن لتتجاهل مثل هذه الدسيسة، وكانت تعدها مكسباً وغنيمة لو صدقت للحصول على مكافئة من المراجع الأمنية العليا جزاء اكتشافها نشاط تخريبي معاد، وكانت لتتمسك بأي قطعة سلاح صغيرة لأثبات ذلك. داهم الأمن على حين غرة البيت، وقلبوه رأساً على عقب في جلبةٍ مزعجة، وصحبهم في ذلك المختار، وبعد أن وصلوا لكل زاويةٍ وركنٍ في البيت، أصابهم الإحباط، لأنهم لم يجدوا غير سكاكين المطبخ. تبادلوا النظر بينهم بغيظٍ وضيق، وانهالوا سباباً وشتماً على المختار الواشي، الذي أجهدهم ببحثٍ مضنٍ افضى إلى لا شيء. لم يكن ينقصهم بعد البصق عليه ولعنه جهاراً أمام أسرة حامد المهدي، إلّا أن يشبعوه ضرباً. ازدرد الإهانة ساكتاً بدون أي تبرير وبلا أدنى دفاع عن النفس، إنما العجيب فيه ليست هذه القدرة الهائلة على امتصاص هذا الكم الهائل من الاحتقار مثل إسفنجة هائلة، بل قدرته على تبرير الخطيئة والتلاعب والخديعة.

جاء هذا المختار وأفراد عائلته من الريف قبل عقود من الواقعة يشكون شظف العيش فيه، واستقروا في بيوت طين متواضعة، إلى أن باعهم الحاج أرضاً بتقسيط مريح ميسر بلا فائدة، مشفقاً على وضعهم المادي الصعب، وصار الرجل هو وكامل عائلته من يومها مشاركين دائمين في المجالس الحسينية، التي تعقد في بيت الحاج المهدي، بسمة فارقة عليه وهي إظهار التأثر المبالغ بالمواعظ الدينية. وما أن حظرت هذه المجالس حتى أصبح كلباً بوليسياً يشم رائحة هذه المجالس ويستدعي أسياده في أجهزة القمع لتصادر أرواح المجتمعين فيها. ومع كل سيئاته في التعاون مع الأجهزة الأمنية، إلا أنه بعد زوال نظام البعث، عاد سباقاً لحضور هذه المجالس كأن شيئاً لم يكن، بل صار حريصاً على الجلوس قريباً أو ملاصقاً للحاج تملقاً له، ومن فرط تملقه قال له يوماً بصوت عال أسمع به جميع الحاضرين: يا حاج، لو أنني مت، فأرجو أن تكون أنت المسؤول الوحيد عن جنازتي. لم تبق عين مبصرة في المجلس، إلا وأسقطت عليه نظرات التعجب، والدهشة تملأ وجه الحاج من قدرة الرجل العجائبية على التلون.

لكن القدر كان متيقظاً لخديعته، ومنع الحاج من تنفيذ هذه الوصية المزيفة. قرر هذا المخادع اللئيم يوماً أن يحقق مكاسب جديدة مستعيناً بماضيه القذر، فتسلل إلى منطقة كانت تشهد نشاطاً إرهابياً، يقوده عناصر من حزب البعث الذي بات محظوراً في أيام اشتداد القتل على الهوية المذهبية. وعندما وقع في الأسر فشل في إقناع المسلحين بإثبات ولائه

السابق، فقتلوه بناءً على لقبه الدال على انتمائه المذهبي، وقُطِع رأسه ذبحاً وتركت جثته في العراء بلا غسل ولا دفن، تنهشها الكلاب الضالة والحيوانات البرية.

13

سكون عجيب وتوقف مذهل للحركة في الزنزانة، ومن العسر بمكان التكيف معه. فلا هو ولا أي حبيس بين تلك الجدران، كان يمارس نشاطاً البتة، إلّا إذا حسب منه تناول النزر اليسير من الطعام، أو شرب المقدار الضئيل من الماء الشحيح، الذي لم يزد في أغلب الأيام عن قدحي ماء، حتى في أيام اشتداد القيظ وسخونة الجو من استواء الشمس المحجوبة عنهم. هذا بالطبع إن حالفهم الحظ في الحصول على هذا المقدار، وإلّا فالأمر أسوأ مما يمكن أن يتصور ويتخيل، بالخصوص حين يجبرون على الإنصات لخطب الطاغية لساعات، وهو يتجول بين قطعات الجيش أو يدور بين المدن مزهواً بانتصارات مزيفة، يثرثر بكلمات سخيفة، فعلى الجميع الجلوس بلا حراكٍ لسماعه، والبقاء متيقظين متسمرين كالأصنام ممنوعين من الشرب والأكل أو حتى الذهاب إلى المرحاض، ومن يفعل خلاف ذلك فقد انتهك حرمة القائد، وأدخل نفسه في ورطة عظمى.

لم يكونوا يفعلون شيئاً البتة ما بين وجبات الطعام، سوى انتظار دورهم لدخول المرحاض. ثم نوم إجباري عند الظهيرة وفي المساء على بطانيات رقيقة سوداء، تغطي أرضاً إسمنتية صارت بمثابة سرير جماعي مشترك، عليه أن يتسع لهذه الأجساد الهزيلة ذات الوجوه الشاحبة، وهي مستلقية على جنوبها، ولا تسنح فرصة بالمطلق لأن يستلقي أحدهم على

ظهره. النوم في حقيقة الأمر لم يكن سوى ترتيبٍ لقطع بشرية، تحشر بتداخل وتراص كأنها قطع لعبة ميكانو. رأس قباله قدمان، وأظهر متلاصقة لحد الالتحام. وإن أراد شخص ما أن يسير، فلن تطأ قدماه الأرض أبداً، ولكن من يهتم؟ ليس لأن الأمر صار عادياً، وما من مبرر للتذمر منه، بل لأن لا أحد يجرؤ على المشي في وقت النوم الإلزامي. من يفعل ذلك لابد أن يكون مغامراً خارقاً أو مجنوناً لا يهمه عقاب ولا ضرب مبرح سيناله. فإن لمحته عين جاسوس، وإن فعل ذلك بداع الاضطرار، فلن تكون عواقب فعله سليمة، بل وخيمة أكثر من عقوبات الدول العظمى عندما تقرر افتراس الشعوب الضعيفة.

النشاط الوحيد المسموح به، هو أداء الصلوات اليومية وحتى هذا الأمر لم يكن مفتوحاً بلا قيود، بل كان لابد من الاحتراس وعدم المبالغة فيه، لأن الوشاة عديمي الضمير، كان يمكن لهم أن يفسروه بنحو آخر تماماً، ويجروا صاحبه إلى أتون عقاب صارم. وهذا ليس افتراضاً نابعاً من خشية زائدة، واحتراز مبالغ فيه، بل احتمال وارد وقوعه في أي لحظة، وحصل بما لا يحصى من المرات، وأودى بحياة بعضهم في قصصٍ لم ترو، وضاعت مع جثثهم في المقابر السرية. كانت تبعات أفعال المنافقين في السجن باهظة الخطورة، بحيث أنها أودت بكثير من السجناء إلى الموت تحت التعذيب، وأصابت آخرين بعاهات وأمراض، وساقت بعضاً آخر إلى حافة العته والجنون.

مراقب الزنزانة كان وضيعاً إلى حدِ القرف، ويضفي شعوراً بالغثيان على أي شخص يصادفه، فكيف بمن يشاطره العيش تحت سقف واحد. كان بارعاً في تصيد أي شيء ليجعل منه هفوة ومخالفة أمنية، والدخول في صراعٍ أو مشاحنة معه، يعني تعريض النفس للضرب والعقاب على جرم لم يرتكب، بفعل قد تصل عواقبه إلى الموت بلا أي مبالغة على الإطلاق. فمن هذه الزنزانة تحديداً، تمت معاقبة أحدهم بطريقة مروعة لسببٍ واهٍ للغاية. ولو سُئِل أي سجين معه هل تعرف قصة هذا الرجل لأجاب بالإيجاب، لكن لو سُئل ثانية ما الذريعة التي أوجبت هذا العقاب المرعب الذي أودى به إلى الموت؟ فلن يعرف السبب أبداً، لأنه كان بالفعل سبباً سخيفاً، واهياً إلى درجة لا يمكن أن يعلق بذاكرة أحد. أُخرج إلى ممر واسع بين الزنزانات، وانهال عليه بالهراوات اثنان من عناصر الأمن مستعينين بثلاثة من السجناء الخونة. أوسعوه ضرباً في كل بقعة تنالها عصيهم من جسده الخائر النحيف، ثم قيد مستلقياً على منضدة ورأسه خارجاً عنها، وقد وضعت سلسلة حديدية قصيرة على رقبته يتدلى من كل جانب منها أسطوانة غاز. كان عليه تحمل السياط على ظهره، والمحافظة على توازن الأسطوانات على رقبته. بعد هذه العقوبة القاتلة دخل إلى الزنزانة، ولم يذق العافية بعدها أبداً. دهمه رعبٌ هائل، وتدهورت صحته بسرعة قياسية، ولم تمض سوى أسابيع معدودة حتى خرج من الزنزانة ثانية، ولكن محمولاً بعربة الموتى.

في يوم أراد هذا المراقب أن يفرض النوم بملاصقة دورة المياه على الجميع، وهو مكان غير مرغوب به بالمرة، لأنه لا تنقطع الحركة عنه إلا في أوقات النوم، وبالكاد يجد الواحد فيه وقتاً للنوم، لأن تجفيفه يأخذ وقتاً طويلاً، وعلى الراقد فيه أن ينهض مبكراً، لأن أول شيء يفعله السجناء بعد نهوضهم، هو التجمع عنده في طابور لدخول المرحاض. ولا خيار لمن ينام هناك إما النهوض مبكراً، أو تحمل دهس الأقدام. كان المراقب يريد أن يفرض إرادته على السجناء، ويحكم قبضته عليهم، بإذلالهم بالنوم حسب الدور بلا اعتبار للسن ولا الحالة الصحية المتدهورة لبعضهم. وبينما كان يستعد لإعلان مرسومه؛ فاجأه سجاد بصوتٍ عال تحركه فطرته وطبيعته العاشقة لخصلة العطاء، التي ورثها عن أبيه، أنه مستعدٌ للنوم في هذا الجزء غير المرغوب من الزنزانة، برجاء نيل الثواب من الله. انهارت الخطة الشيطانية وتداعت حجة صاحبها على مسمع ومرأى من الجميع، ولم يجد شيئاً لينتقم به منه، إلّا كلمة ثواب. إذ عدها مخالفة أمنية وترويجاً لأفكار دينية ممنوعة. وكان على سجاد أن ينتظر اليوم التالي لينال عقوبته. وبالفعل دخلت عناصر الأمن، ونادوا بأسماء مجموعة مخالفين، وأوسعوهم ضرباً وشتماً بناءً على تقرير المراقب، إلّا أنهم ظلوا يبحثون عن اسمٍ مدرج في القائمة بدون جدوى، فلا أحد يحمل هذا الاسم. بعد يأسهم من العثور عليه، ولأن التعذيب كان مهمة عبثية، اكتفوا بمن ظفروا به، وانهالوا شتماً على المراقب ونعتوه بالأبله، لأنه لا يحفظ أسماء من يسكن في زنزانته. لكن حقيقة

الأمر لم تكن كذلك، بل انه كان يعرفهم جيداً، ويحفظ أسماءهم بلا سهو ونسيان، ولكن لأنه كان فيما مضى تلميذاً بليداً لا يحسن القراءة والكتابة، وخطه متعثراً مرتبكاً لا يُفهم؛ لذا دون اسم سجاد بطريقة مضحكة، تعذر معها قراءته بطريقة صحيحة، ولولا غباوته وبلادته لكانت قائمة المعاقبين قد زادت واحداً في ذاك اليوم.

كان موقفاً مضحكاً مسلياً، مع إن أحداً لم يجرؤ على الضحك خشية استفزازه، أما هو فقد استشاط غضباً، ولم يفهم ما حصل، وفكر طويلاً، إلّا أنه لم يستطع أن يجد ما يقوله. في اليوم التالي انتبه لخطئه، وطلب من أحد الحرس أن يقترب منه ليبلغه أمراً ما، ولكنه تلعثم وهو يحاول أن يوضح له ما جرى بالأمس، ولأن رجال الأمن لم يكونوا يقيمون للوشاة أي احترام؛ نظر إليه رجل الأمن بقسوة، وضرب الأرض بقدمه بقوة، شعر معها المراقب وهو الجبان الرعديد بأن العقوبة ستناله هو، كاد أن يغمى عليه من الفزع مترنحاً إلى الوراء مبتعداً عن الباب، لا يدري إلى أين يلجأ من هذا الغضب المستعر. أما رجل الأمن المستنكف من محادثته، فقد ختم حواره السريع معه بإطلاق شتيمة مقذعة عليه من غير أن يلتفت إليه، أو يدعه ينطق بحرف فضلاً أن يسمع شيئاً منه، وهكذا وأدت محاولته الثانية للوشاية بفشل مريع.

هذا لا يعني أن سجاد كان في منجى دائم، فقد سحب مرة إلى غرفة صغيرة خالية من الأثاث، إلا من مروحة عمودية. وانهال عليه الشرطي "حاتم" يضربه على ظهره بهراوة خشبية غليظة. وكان يهدده بعدم مقاومة

الضربات، وإلّا سوف يضاعف العقوبة له، في حال تسببت مقاومته بكسر العصا أو الحاق ضرر بالمروحة، أن تفادى ضربة عصا فأصابتها. كانت الضربات تنزل متوالية على ظهره حتى بلغت أكثر من خمسين ضربة، ثم بدأ يضربه على معصميه بعدد لا يحصى. شعورٌ غريبٌ من الجَلَد والتحمل نزل عليه، فقد كان ينشغل عن ألم الضربة وهي تنزل عليه بهاجس الخوف من الضربة اللاحقة. سأل نفسه لماذا لا أتأذى؟ وهل يمكن لبشرٍ أن ينزل به كل هذا العذاب، ولا يشعر بالألم؟ الخوف والفزع من انتظار العقاب، أو رؤية أحد يضرب أمامه، كان يشعره برعب يوشك أن يحطمه، وهو الذي جعل من صحته تتحول من سيء إلى أسوأ بتدرج سريع. لم تكن رباطة الجأش والأمان النفسي والثقة ثابتة عنده دائما في عموم الأوقات، بل كانت تصعد ساعة وتهبط في أخرى، مرة يرتعد خوفاً وتارة أخرى يشعر بأنه صخرة صماء.

تحت باب الزنزانة، كانت توجد فتحة أفقية عريضة، هي النافذة الوحيدة إلى الحياة، ومنها يمر ما يحتاجه السجين للبقاء على قيد الحياة فقط من طعام شحيح، لا يشبع له حاجة ولا يقيم له أوداً، ولا يحجز عنه المرض الذي ابتلت به أجساد السجناء النحيفة. لم يكن بالإمكان أبداً عبور هذه البوابة المؤلفة من قضبان حديدية قوية، ومغلقة بإحكام تام، ولا تفتح إلّا بمفتاح حديدي بحجم عملاق خاص لكل زنزانة، ولا يصلح لغيرها. كان رجل الأمن حين يأتي يحمل في يده سلسلة كبيرة، تحدث دوياً صاخباً وجلبة سمجة وقرقعة مزعجة، تقرع الآذان من بعيد

بارتطام المفاتيح بعضها بالبعض الآخر. صوت حضور المفاتيح، كان ثقيلاً على السمع، يؤذن بوقوع حدثٍ تنخلع له القلوب وكارثة جديدة في مكان لا تنقطع مصائبه، خصوصاً إذا تزامن ذلك مع حضور نقيب الأمن "غالب الدوري" المعروف بوحشية بالغة سكنت نفسه الشريرة، وبقسوة مفرطة يظهرها قوامه المشدود وقامته الفارعة، إلّا أن اكثر ما كان يلفت النظر فيه، هو الحطة والخسة وحضيض الآدمية التي بلغها، إن جاز أن تنسب للآدمية. عاصفة من يأس مرير تهب على السجناء ساعة دخوله القسم المغلق، وهو يوعز لأعوانه بفتح باب احدى الزنزانات، ولسان من الجحيم يندلع حين يلج القسم المغلق، يلتهم من تقع عليه نوبة سخطه ومزاجه المتعكر. الصمت الرهيب كان يسيطر على سائر الزنزانات لساعات عدة حتى بعد رحيله، لما خلّفه من كسورٍ وجروح وأنين وآلام، لا يتوقفان عن تعبئة فضاء الزنزانة لأيام طويلة.

يضطجع من غير أن يغمض جفنه، يحاول الهروب من صمت السجن الرهيب، وليس منه. فلا هو ولا أحد غيره فكر بذلك، لأن مجرد خاطرة مثل هذه كانت تكفي لتلحق بصاحبها موتاً رهيباً. ولم تكن حادثة الفتى الذي قتل في يوم اعتقاله الأول، والتي استقرت في روحه، ولم يقدر على الخلاص منها طيلة عمره، الحادثة الوحيدة التي شهدها، بل لأنه رأى غيرها بقبحٍ أكثر. ففي يوم استبد الضجر بأحدهم، فقال ممازحاً: ماذا لو خرج الواحد من كوة تهوية في اعلى الجدار بمحاذاة السقف. بالطبع كانت فكرة مضحكة لسخافتها أولاً ولاستحالتها

المطلقة ثانياً، لأن الفتحة كانت من الضآلة بحيث لا يمر منها قط، بل إن الهواء بالكاد كان يمر منها. وبرغم حجم السخافة التي تكتنف هذه الفكرة والخيال اللامتناهي الذي تحمله، ومع أن صاحبها أصلاً لم يكن في نيته فعل شيء غير المزاح والسخرية، ولا أنه فعل يوماً ما شيئاً يدل على مثل هذه الروح المغامرة، إلّا إن الخبر حين وصل لعناصر الأمن أخرجوه من الزنزانة، وقتل أمام الجميع بضربة عصا واحدة على رقبته، في ترهيب لكل من يفكر، بل يحلم بالهروب وليس تنفيذه.

بمنوال مستمر كان يحدث نفسه بمرارة لاذعة، إن الحياة فعلاً لمليئة بالمفاجآت!، وصورٌ سريعة لا يربطها نسقٌ ترشقها من بعيد ذاكرته، التي لم تفقد بعد خزينها رغم مرور ثلاثة أشهر بين اعتقاله ولحوقه بهذه الزنزانة. متى تعود لي حريتي وحقي في العيش بين الناس، وارى الشمس ثانية؟ يردد في نفسه هذه الكلمات، فيما وجهه يتقلص، وهو يذكر رؤيتها آخر مرة، حين أجبروا على الخوض في وحل مستنقع من المياه الآسنة وهم حفاة، والعصي تنهال عليهم من كل صوب، يطلبون منهم تنظيف باحة خارجية بأيد خالية. ولو راهن أحد على عجز فريق بكامل عدته وتجهيزاته من دائرة البلدية عن تنظيفها بأيام وربما أسابيع لجنى من مراهنته مالاً وفيراً.

انقطاعه عن المدرسة كان يؤرقه، حتى وهو في وسط هذه العبثية والقسوة الرهيبة، ويشعر بمرارة الانقطاع عنها. وبدأ يتعاظم إدراكه، أن الهدف من السجن تحطيم شخصيته، وكل يوم تزداد قناعته بدليلٍ جديد

يتوفر لديه. حتى في السنة العاشرة للسجن عندما تحسنت أوضاع السجن كثيراً قياساً إلى السنين الأولى، وصارت أقل سوءاً، وصار أحياناً بالإمكان طلب بعض النواقص، سأل سجاد يوماً المسؤول عن السجن، أن يسمح له بالدراسة، ويُمْنَح فرصة أداء الامتحانات الوزارية من السجن كما هو حال السجناء الآخرين في السجون الأخرى؟ جاءه الجواب الذي أكد ظنونه التي لم يشك فيها أبداً.

- أي شيء تطلبه يمكن مناقشته إلّا هذا، لا تفكر به مطلقاً.

وعيه بمخططهم في إفناء شخصية السجين السياسي، دفعه لأن يحول السجن إلى مكان للتعلم. وتحول الأمر عنده إلى هاجس أكثر من كونه حافزاً دفعه لطلب التعلم من أي شخص وعن أي شيء يجهله. ورغم كثرة المشاق وتعدد المصاعب إلّا أنه لم تخفت عنده رغبة إكمال دراسته، وبذل جهده لتحقيقها، ولم يخفق في الوصول لمبتغاه.

عانى من القسوة والعزلة والرتابة، أسهدته ليلاً وعكرت حياته نهاراً، خلال سنة حبسه الأولى، رغم أنه بذل غاية جهده ليتخلى عمّا يوقظ فيه الرغبة والشوق إلى العالم الخارجي، لأن هذه الرغبة هي أسوأ عدو للسجين، وأكبر خطيئة يمكن أن يجلب بها الأذى على استقراره النفسي، ولا يوجد شيء يمكنه أن يكثر من ملله وسأمه وضجره، ويهدم مقاومته وممانعته أكثر منها. وعندما أصيب بالتدرن الرئوي؛ ماتت هذه الرغبة عنده تماماً. ولم تعد إليه الرغبة بالعالم الخارجي من جديد، إلا في اليوم الذي تلقى فيه الزيارة الأولى من أهله. ظهرت بمحيا مرتبك

بين ألم وحزن من وجع الفراق وثقل تعب السنين، وبين ابتهاج وفرح بلقاء الأهل و الأحباب والإحساس بحنانهم من جديد. ثم تعالت تلك الرغبة رويداً، بعد أن أصبحت الزيارات أمراً رتيباً يحظى به مرة في الشهر، ثم كل أسبوعين. وصارت أحاديثه وبعض تصرفاته وطلباته، تعكس نشوة شوقه ونزوته لشيء، لا يجده في سجنه خلف القضبان.

14

كان تثاؤب الأفواه الجائعة سيد الموقف، فلا حل إلّا به، للخلاص من الضجر والشكوى من زمن لا يتحرك. وقت يجثم على الصدور كأنه صخرة جرداء ملساء، انتزعت من قفر خال لا أثر فيه للحياة. مرور الوقت كان وحده عذاب، فقد كان يسير ببطءٍ قاتل مثل سير عربة قديمة تغرز عجلاتها كل حين في رمال طريق صحراوي. الحديث مع النفس غالباً لم يكن هروباً من الواقع، ولا خياراً للتأمل وإعادة ترتيب الأفكار، بل لأن أي محاورة بين اثنين كان يمكن أن تكون مجلبة لمتاعب جمة. كان التضييق المبالغ والتعذيب الجسدي حرباً نفسية لإلغاء شخصية السجين، يريدون أن يجعلوه يتخلى عمّا يشغل باله طوعاً، وينهمك في روتين السجن، حتى إذا خرج يوماً منه يصبح طيعاً منقاداً، يعدّ ما يحصل له قدراً مكتوباً لا سبيل لمقاومته. قاوم سجاد هذا المحظور، وصار يتحين الفرص لإجراء حديثٍ جاد خارج هذه الرتابة السخيفة المملة، لكن الأمر لم يكن يسيراً بالمرة، لأن عيون الخونة لا تفتر. وعندما يجد من يشاطره؛ كانا يجلسان وقد أستدبر أحدهما الآخر، ولا يفتأ كل منهما عن مواصلة النظر بحذر تجاه الوشاة، خشية أن ينتبهوا لما يجري بينهما. مع أن حديثهما لم يكن مثقلاً بأسرار خطيرة لا تفشى، ولا تناقلاً لأفكارٍ محظورة، فكل ما كان يجري بينهما، لا يعدو عن حديثٍ عادي، يمكن أن يجريه شخصان تعارفا للتو في مقهى عام.

شدة الجوع وتزايد الإرهاق بدأ يحل بجسده نعاساً، تعينه عليه عتمة الزنزانة وبرد الخريف من ريح تعبث بأكوام النفايات في الساحة المهملة وراء الزنزانة. أجهد نفسه في إيجاد وسيلة للخلاص من نعاسه الذي تثاقل عليه في هذا الطقس، يبحث عن شيء يحتمي به من برد الريح المتسلل من ثقوب الآجر الإسمنتي. جلس متكئاً بظهره على زميل له، وسدد بصره إلى الأمام حيث القضبان الفولاذية السميكة واجهة الزنزانة، وأخلد إلى غفوة عميقة. لم يلحظ أحد نومته الممنوعة في وقت اليقظة، ونجح الأمر معه، ثم أصبح خبيراً به، حتى غدا قادراً على النوم فاتحاً عينيه بأوسع مدى. لا يعني هذا انه كان يغط في نوم عميق، فما يحصل عليه في الواقع هو غفوة لدقائق معدودة لا تصل إلى خمس دقائق في أحسن المرات. شعر براحة هائلة، لأنه نجح في التغلب على البرنامج القاسي الذي وضعه السجانون أكثر من شعوره براحة جسده. نجاحه كان صرخة في العتمة، وتتويجاً لإرادة قررت مواصلة الحياة. تذكر من جديد رفيقه في الزنزانة "هلال" الساخر بكلماته، الحكيم بمعانيها، والواعظ بمقاصدها: عرفت الآن لم الإنسان سيد على المخلوقات قاطبة؟ ليس لأنه يتحمل الضرب أكثر من الحمار، فأنا شخصياً تفوقت على البغل ولا أسمح مقارنتي بالحمار، وليس لأن الإنسان لديه عشر أرواح أكثر حتى من القطط، بل لأن الحيوانات تموت بموت أجسادها، أما الإنسان فلا يموت إلا إذا ماتت إرادته وخارت عزيمته، انظروا لهؤلاء الأقوياء الذين يعذبوننا ليل نهار كيف يتلوون من الحقد، لمجرد نظرة شجاعة

منّا، وكيف يرتعبون فلا يكلموننا ألا من وراء القضبان وأيدينا مكبلة بالقيود. ضحك ساخراً عندما تذكر كيف صادروا منه حبل بلوزته، كما صادروا أحزمة آخرينخشية أن يقدموا على الانتحار. إنهم حمقى وأغبياء لأن السجناء السياسيين لا ينتحرون، بل يواصلون الحياة رغم أنوف الظالمين، وإذا ما استشهدوا فإنهم يخلدون إلى الأبد.

تعاظم إرادته وتزايد صلابته لم تحم جسده من عواقب البرد، الذي أورثه مرض السل الرئوي، بعد اضطراره للاستحمام بالماء البارد، إذ لم يكن هناك من ماءٍ ساخن بالمطلق، ولأنه كان ملتزماً بأداء الصلاة اليومية، فقد كان حريصاً على طهارته مما كان يصيبه من فورة الفحولة في نومه، فيغتسل ليلاً ـ في البرد القارس. أصيب أولاً بالتهاب رئوي، ثم تفاقم سريعاً إلى سل رئوي، ولم يكن هناك من دواءٍ يتطبب به، وحتى الطبيب زميله ـ في الزنزانة لم يجد من شيء يقدمه له سوى تسليته بإسداء النصائح بأسلوبٍ مرح للتخفيف عنه. وكلما ازداد سعاله؛ كان ينبري "رزاق" المعروف بقدرته الفائقة على الكتابة بخط رائع، واطلاق الطرائف حتى ـ في أشد الظروف تعاسة، بسؤاله بطريقة هزلية حين تأتيه نوبة سعال متواصلة، لماذا تسعل كثيراً يا سجاد؟ هل تريد أن تلفت انتباه أحدٍ لك؟ ألا ترى أن لا فتاة بيننا، فكلنا ذكور ولن ينتبه لك أحد، أم انك تخفي شيئاً أيها الماكر؟ كان كمن يشعل له عود ثقاب ـ في نفق طويل لا نهاية له. كان مرحه وكلام الطبيب ينيران المكان أمامه، ويباعدان جدران الزنزانة، كمن يضع المفتاح ـ في فتحة الباب الموصد

دوماً، ويخيل إليه وهما يتكلمان معه، أنه يسمع صوت المفتاح يحتك بالقفل المغلق، بل ويسمع صرير الباب وهو يفتح، ولكن حين ينطفأ مزاحهما ينطفأ بصيص النور الباهت، ويعود يتلفت، فيرى أنه مازال على حاله. الأيام تمر ويجلس بهدوء داخل الغرفة دون حراك، كان يبدو مختلفاً عن الآخرين تماماً، فقد صار أشبه بهيكل عظمي ببشرة صفراء باهتة، مع ظلال داكنة عند العينين، بوجنتين غائرتين. مجرد النظر إلى هذا الوجه المتهاوي يثير رعباً مفزعاً، ولا يمكن لأي أحد أن يصدق أن صاحبه في العشرين من عمره.

يجلس طويلاً يناقش في رأسه أفكاراً وخططاً، مثله مثل عاشق حائر فاشل لا يملك الجرأة على البوح بغرامه، ويخشى افتضاح أمره. يدون بدواة خياله على قرطاس روحه رسالة تلو الأخرى في هزيع الليل. النحيب يملأ صدره، ولكن نادراً ما سُمِع بكاؤه، وهو الذي يبكي لأجل أي موقف. صار كالجمرة المتقدة، وهو يتابع الرتابة المملة المتزامنة مع الخوف، إلّا أنه لم يفقد الأمل بالخلاص من هذا الحيز الفظيع. فكرة الخلاص منه استحوذت عليه بالكامل، ولكنه لا يعرف لها سبيلاً. تملكته حتى نفذت به إلى استشراف المستقبل بالأحلام، كأن السماء صنعتها خصيصاً للسجن، فصارت آلة الزمن وبها يعبر إلى المستقبل، رأى يوماً في منامه أنه يخرج من السجن بعد أن أمضى عاماً كاملاً فيه.

لم يكن مرض السل شراً بالمطلق، كما قد يتصور المرء حين يسمع به، فقد كانت له هناك منافع كثيرة جمة، إلى الحد الذي صار النازل في

ذاك السجن، يتمنى أن يصاب به، بعد ورود أخبار متواترة عن قسم جديد، يخلو من الوشاة، ويقل تردد عناصر الأمن عليه خشية العدوى من سكانه. هذا الأمر عدّ فرجاً كبيراً، ولا يمكن لأحد أن ينكر هذه الحسنة الجليلة للمرض، الذي فتك بحياة بعض ليس بقليلٍ منهم. حسنة في هذا السجن تحديداً، وليس في أي مكان آخر، وما يُدرى لعله كان هناك موضع أسوأ منه، فالبلد كان وقتها مضطرباً، ولا ينجب إلّا التوحش والابتذال والخسة. ويبدو حينها، إن المفاضلة بين الأماكن والأحوال كانت في أيهما أقل سوءاً، لا أيهما أفضل.

بعد سنة كاملة من يوم اعتقاله بالتمام والكمال، وفي اليوم عينه والساعة نفسها التي اعتقل فيها، أُخر جمع مجموعة مصابين بمرض السل لنقلهم خارج القسم. حفاة لا يملكون متاعاً بأجساد هزيلة متداعية، ووجوه صفر شاحبة، يسيرون في ممر مظلم طويل، وعلى رؤوسهم خرق من القماش تحجب هوياتهم. الخوف والرجاء يملأ أرواحهم، إلى أين نسير؟ هل إلى مكان نسترد فيه حقنا في الحياة، أم نسير إلى حتفنا؟ هل القادم شفاء لأرواحنا وأجسادنا، أم إننا نسير إلى محل فاسد نتعفن فيه، من قبل أن نُطْمَر تحت التراب؟ ممرٌ فارغ تملأه صيحات حارس الأمن "خليل" يحثهم على السير، ومن بعيد في آخر الممر الممتد كأنه نفق تحت الأرض، ظهر شاهد غير متوقع. دخل فجأة من غير أن يدري بخطورة القافلة التي تسير، فندت صرخات الأمن عليه من كل صوب، وامتلأ الممر ضجيجاً. الشاهد يهرب متوارياً، وتتساقط

أشياء من يديه فتزيد المشهد صخباً. اختفى وهو يسحب إلى الجهة الأخرى من الكون صورة القافلة، التي تواصل سيرها في دهليز طويل معتم، بل نفقاً تسوده القسوة والفوضى والظلام، وهي تخشى مما يقع في نهايته، ولكنها ترنو بعيداً إلى آخره، ترى بصيص نور أو ضوء يومض بين حين وآخر يتراقص في جميع الجهات، يغير موضعه في كل لحظة، كأنما يهرب من ملوك الظلام وآلهة العتمة، بدا بارعاً في التملص وقادراً على البقاء رغم كل شيء كأنه أمل حتمي يقف عند الختام منتظراً وصول موكب المعذبين والمستضعفين ليشرق عليهم ويملأ أرواحهم والأرض بالعدل والسلام.

تمت

لندن 26- 12- 2021

للتواصل مع المؤلف
nahidhalhindi@gmail.com